ألبير كامو

الغريب

ترجمة : د. محمد غطاس

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ألبير كامو

الغَرِيب

رواية

القرن العشرون ميلادي

ترجمة د. محمد غطاس

KOTOBONLINE
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الجزء الاول

أمي ماتت اليوم. وربما كان ذلك بالأمس، لست أدري! فقد تلقيت برقية من دار المسنين تقول: «ماتت الأم. الدفن غدا.

تحيات طيبة.» وهذا لا يعني شيئا. فربما كان ذلك بالأمس. تقع دار المسنين في «مارينجو»، على مسافة ثمانين كيلومترا من الجزائر العاصمة.. سوف أستقل الأتوبيس في الثانية فأصل هناك بعد العصر. وعليه سأقضي الليلة ثم أعود غدا في المساء. لقد كنت قد طلبت يومين إجازة من رئيسي في العمل، ولم يستطع – هو – أن يرفض طلبا مشفوعا بمثل ذلك السبب. ولكنه لم يكن مسرورا. حتى إني كنت قد قلت له: «إن ذلك ليس ذنبي» فلم يرد. ثم فكرت – فيما بعد – في أنه لم يكن من المفروض أن أقول له ذلك. باختصار، لم يكن هناك شيء يدفعني إلى الاعتذار، بل لقد كان عليه – هو – أن يقدم إلى تعازيه. ولابد أنه سيفعل ذلك بعد غد، عندما يراني في ملابس الحداد. أما في الوقت الراهن فإن كل شيء يسير كما لو كانت أمي لم تمت، ولكن بعد الدفن سوف يكون الأمر قد انتهى، وسوف يأخذ كل شيء مساره الطبيعي.

ركبت الأتوبيس في الثانية. كان الجو حارا. قبلها كنت قد أكلت – كالعادة – في مطعم «سىلىست». كان الحاضرون حزينين من أجلى. حتى إن سىلىست نفسه قد قال لي: «ليس لنا – في الحياة – سوى أم واحدة.» وعندما انتهيت صحبوني حتى الباب. أحسست بشيء من الضيق؛ فقد كان على أن أصعد لدى إيمانويل لأقترض منه رباط عنق أسود وشارة حداد. لقد فقد – هو الآخر – عمه منذ عدة شهور.

بعدها كان على أن أركض حتى لا يفوتني الأتوبيس. وبسبب تلك العجلة، وذلك الجري، وربما أيضا بسبب التعب، ورائحة البنزين، واهتزازات الطريق، والسماء – كنت قد غفوت. لقد استغرقت في النوم طوال الرحلة تقريبا. وعندما استيقظت وجدت نفسي مكوما إلى جانب أحد العسكريين، الذي ما إن رآني أستيقظ حتى سألني إن كنت قادما من بعيد. فقلت «نعم» وأغمضت عيني حتى لا أضطر إلى مزيد من الحديث.

كانت دار المسنين على بعد كيلو مترين فقط من القرية. فقطعت الطريق على قدمي، لقد كنت أريد أن أرى أمي في الحال، ولكن الحارس قال: إن على أن أذهب أولا لمقابلة المدير، ونظرا لأن الأخير كان مشغولا، فقد انتظرت قليلا. وطول وقت الانتظار كان الحارس يتكلم. ثم رأيت المدير: قابلني في مكتبه، وهو عجوز قصير، ويعلق فوق صدره وسام الشرف. نظر إلى بعينيه الرائقتين، ثم شد على يدي واحتفظ بها وقتا كان طويلا حتى إنني لم أكن اعرف

كيف أستعيدها منه، ثم تفحص واحدا من الملفات وقال: «السيدة ميرسو قدمت إلى هنا منذ ثلاث سنوات، وكنت أنت عائلها الوحيد» فاعتقدت أنه سوف يعتب على شيئا ما، وعليه فقد بدأت أشرح له، ولكنه قاطعني قائلا: «أنت لست في حاجة إلى تبرير أفعالك يا ولدي، فأنا لدي هنا الملف الخاص بأمك، وأنت لم تكن قادرا على تلبية احتياجاتها، ثم إنه كان لابد لها ممن يرعاها، ودخلك متواضع.

وبكل المقاييس كانت أمك أكثر سعادة هنا فقلت: «نعم يا سيدي المدير» | فأضاف: «لقد كان لها هنا أصدقاء في مثل سنها، فكانت لهم نفس الاهتمامات، أما معك فأنت لازلت صغيرا، ولابد أنها كانت ستضيق بصحبتك».

لقد كان ذلك صحيحا. فعندما كانت تعيش معي، كانت تقضي وقتها تتابعني بعينيها في صمت. وعندما دخلت إلى دار المسنين، كانت تبكي كثيرا في الأيام الأولى، ولكن ذلك لم يدم؛ فبعد عدة شهور كانت ستبكي إذا انتزعناها من تلك الدار. كانت قد تعودت عليها. وربما لذلك السبب، لم أكن قد زرتها تقريبا في السنة الأخيرة، وأيضا لأن الزيارة كانت تكلفني ضياع يوم الأحد – الذي هو يوم عطلتي الأسبوعية – دون الأخذ في الحسبان كل المجهود اللازم لشراء التذاكر، والذهاب إلى الأتوبيس والسفر المدة ساعتين كاملتين.

راح المدير يتابع حديثه، ولكنني لم أكن أنصت إليه، ثم قال: «أعتقد أنك تريد أن ترى أمك» فاستويت واقفا دون أن أقول شيئا. وسبقني هو إلى الباب. وعلى السلم راح يشرح لي: «لقد نقلناها إلى حجرة خاصة بعيدة، حتى لا ينزعج باقي النزلاء، فكل مرة يموت فيها أحدهم، يظل الباقون في فزع لمدة يومين أو ثلاثة، مما يؤدي إلى تعكير صفو الدار» ثم عبرنا فناء به الكثير من المسنين الذين كانوا يتوقفون عن الحديث عندما كنا نمر بهم، ثم يتابعون ثرثرتهم بعد مرورنا. وأمام باب إحدى البنايات الصغيرة غادرني المدير وهو يقول: «سوف أتركك هنا يا سيد ميرسو. وسوف أكون رهن إشارتك في مكتبي إذا احتجت إلى شيء. ومن حيث المبدأ، فإن الدفن قد تحدد في العاشرة من صباح الغد، حتى تستطيع أن تسهر إلى جانب الفقيدة. وهناك كلمة أخيرة: إن أمك قد أعربت لرفاقها – في أكثر من مناسبة – عن رغبتها في أن تتم مراسم دفن دينية، وسوف أقوم بما ينبغي عمله في ذلك الاتجاه، ولكني أردت فقط أن أخبرك «فشكرته. صحيح أن أمي لم تكن كافرة، ولكنها في حياتها لم تكن مطلقا تفكر في الدين..

دخلت: كانت حجرة ناصعة البياض، مطلية بالجير، وبها العديد من المقاعد وحوامل خشبية على هيئة حرف. فوق اثنين من تلك الحوامل، في الوسط، كان هناك تابوت عليه غطاء، وكانت هناك مسامير لامعة لم يتم دقها في الخشب حتى نهايتها.

وبعضها كان سقط فوق الأرضية الخشبية، بالقرب من التابوت، كانت هناك ممرضة عربية في جلباب أبيض وتغطى رأسها بمنديل ملون.

في تلك اللحظة دخل الحارس خلفي تماما، وربما كان قد لحق بي جريا، ثم قال في تلعثم: «لقد وضعنا الغطاء، ويجب أن أفك المسامير حتى يمكنك أن تراها» ثم اقترب من التابوت فأوقفته، فقال: ألا تريد ...؟ فأجبت: «لا» فتوقف، وعندما أحسست بالخرج فربما لم يكن من اللائق أن أقول ذلك، نظر إلى الرجل لحظة ثم سألني لماذا؟ ولكنه قالها دون عتاب وكأنه يستفسر فقط، فقلت: «لا أدري ما عندها، راح يفتل شاربه الأبيض وهو يقول دون أن ينظر إلى: «أنا أفهمك» كانت عيناه زرقاوان صافيتين، وكان وجهه مشوبا بحمرة، ثم ناولني مقعدا، وجلس هو الآخر إلى الخلف قليلا، وعندما نهضت الممرضة وتوجهت ناحية باب الخروج، قال لي الحارس «إنها مصابة بتقرح». ونظرا لأنني لم أفهم ما يعنيه، فقد نظرت إلى الممرضة ورأيت أنها تغطى وجهها بقناع أبيض اللون لا يرى منه سوى عينيها. وعند مستوى الأنف كان القناع مسطحا ولا يرى تحته سوى الضمادات البيضاء على الوجه . عندما رحلت، قال الحارس: «سوف أتركك وحدك» ولست أدري ما الذي فعلته، ولكن الرجل ظل واقفا خلفي، وكان وجوده يضايقني. كانت الحجرة مليئة بضوء ما قبل الغروب الخافت الجميل. وكان هناك اثنان من الزنابير التي تطن خلف زجاج النافذة، وأحسست بالنوم ينتابني. فقلت للحارس، دون أن ألتفت إليه :

هل تعمل هنا منذ مدة طويلة؟» فرد على الفور، وكأنه ينتظر سؤالي هذا منذ أمد طويل: «خمس سنوات» بعدها ثرثر الرجل كثيرا، وقال: إنه لم يكن ليصدق لوكنا قد قلنا له: إنه سنهي حياته حارسا في. دار للمسنين بارىنجو، وإنه يبلغ من العمر الرابعة والستين، وإنه من باريس. وعندما قاطعته: «آه! إذن فأنت لست من هنا؟» ثم تذكرت أنه قبل أن يصحبني إلى المدير كان قد حدثني عن أمي، وكان قد قال: إنه يجب دفنها على وجه السرعة؛ لأن الجو حار في هذه البلاد، وكان عند ذلك قد أخبرني أنه قد عاش في باريس وأنه لا يستطيع أن ينسى ذلك. وأننا في باريس يمكن أن نمكث مع الموتى ثلاثة أو أربعة أيام في بعض الأحيان، أما هنا فليس لدينا الوقت، حتى إنه يجب علينا أن نجري خلف عربة الموتى. وعند ذلك كانت زوجته قد قالت له: «اصمت، فليست هذه أشياء يجب أن تقولها لذلك السيد» فاحمر الرجل ثم اعتذر. فتدخلت قائلا: «لا، أبدا.. لا، أبدا». فقد كنت أجد ما يقوله حقا ومثيرة للاهتمام.

في حجرة الموتى، كان قد أخبرني أنه دخل إلى دار المسنين كمحتاج. ونظرا لأنه كان يشعر بالقدرة على العمل، فقد اقترح أن يعمل حارسا. وكنت قد قلت: إنه في الواقع، يعتبر نزيلا عاديا، ولكنه قال: لا.

وكنت قد صدمت من طريقته عندما يتكلم عن باقي النزلاء فيقول: «هم» | أو «الآخرون» وأحيانا «المسنون»، ورغم أن بعضهم لم يكن أكثر منه سنا. وبالطبع فلم يكن يجد أن هناك وجها للمقارنة؛ فقد كان هو حارسا، وعليه فقد كان يشعر بعض الشيء – بأن له عليهم حقوقا.

كانت المرافقة قد دخلت في تلك اللحظة، وكان الظلام قد حل فجأة. والليل قد صار حالكا عبر النافذة، فأدار الحارس مفتاح التيار فبهرني الضوء المفاجئ، ثم دعاني إلى مطعم الدار للعشاء، ولكنني لم أكن جائعا، فعرض أن يحضر إلى قدحا من القهوة باللبن، ونظرا لأنني أحب كثيرا القهوة مع اللبن فقد قبلت، فذهب ثم عاد بعد لحظات حاملا صينية، فشربت، ثم أحسست بالرغبة في التدخين، ولكنني ترددت فلم أكن أعرف إذا ما كنت أستطيع أن أدخن أمام أمي. وعندما فكرت، وجدت أن ذلك ليس له أية أهمية على الإطلاق، فقدمت سيجارة إلى الحارس ورحنا ندخن.

بعد فترة، قال: «إن أصدقاء السيدة والدتك سوف يأتون للسهر معها أيضا؛ فتلك هي العادات. ويجب أن أذهب لإحضار المزيد من المقاعد والقهوة السوداء». فسألته عما إذا كنا نستطيع إطفاء واحد من المصابيح، فانعكاس الضوء على الجدران البيضاء كان يزعجني، فقال: إن ذلك مستحيل؛ فالتوصيلة الكهربائية كانت هكذا: إما كل المصابيح أو لا شيء على الإطلاق. بعد ذلك لم أعره شيئا كثيرا من الاهتمام. كان قد خرج، ثم عاد، ثم صف بعض المقاعد، وفوق أحدها كان قد وضع شيئا من القهوة وبعض الأقداح، ثم جلس في مواجهتي في الناحية الأخرى من أمي. وكانت المرافقة تجلس أيضا في المؤخرة، كانت تدير لنا ظهرها، ولم أكن أدري ما تفعله، ولكن من حركة ذراعيها، يمكن أن أقول: إنها كانت تطرز. كان الجو دافئا، وقد أعطتني القهوة مزيدا من الدفء، ومن الباب المفتوح كانت تهب علينا رائحة الليل والزهور، وأعتقد أنني قد غفوت قليلا.

استيقظت على حركة خفيفة. وعندما فتحت عيني بدت لي الحجرة أكثر بياضا ولمعانا، لم تكن هناك أية ظلال؛ فكل الأشياء، وكل الزوايا، وكل المنحنيات كانت لامعة لمعانا يؤذي العيون. وفي تلك الأثناء دخل أصدقاء أمي، لم يكونوا يزيدون على العشرة، وكانوا يمرقون في صمت تحت تلك الأضواء المبهرة، ثم جلسوا دون أن يصدر أي صوت عن أي مقعد. كنت أراهم بوضوح، ولم يكن يغيب عني أي من تفاصيل ملامحهم أو ثيابهم، وبالرغم من ذلك لم أكن أسمعهم، حتى إنني كنت أجد صعوبة في تقرير حقيقة وجودهم. كل النسوة تقريبا كن يرتدين المرايل، وكانت الأربطة التي تشد تلك المرايل إلى أجسادهن تزيد من ظهور بطونهن المنتفخة، حتى إنني لم أكن – إلى ذلك الحين – قد تخيلت إلى أي حد يمكن إن يكون حجم بطون النسوة المسنات. وكان كل الرجال تقريبا شدىدى النحافة ويقبضون على عصى. ومن العجيب أنني لم أكن أرى لهم عيونا، بل فقط نوعا من الضوء الباهت وسط أخدود من التجاعيد. وعندما جلسوا، نظر إلى معضهم وأومئوا برؤوسهم في حرج، وبشفاههم التي كانت تختفي داخل أفواههم عديمة الأسنان، دون أن أدري إذا ما كانوا يحيونني أو أن ذلك لا يعدو فقط واحدة من عاداتهم. وهم يهزون رءوسهم من حول الحارس، حتى إنني أحسست في لحظة من اللحظات كأنهم كانوا قد اجتمعوا لمحاكمتي.

بعد قليل، راحت واحدة من النسوة تبكي. كانت تجلس بالصف الأخير، وتختفي خلف إحدى زميلاتها، فلم أكن أراها بوضوح. كان بكاؤها على هيئة صرخات قصيرة منتظمة، حتى إنني ظننت أنها لن تتوقف على الإطلاق، وكان الآخرون يبدون وكأنهم لا يسمعونها، كانوا فقط يجلسون في ضعف وحزن وصمت، وكانوا ينظرون إلى التابوت أو إلى عصيهم ولا ينظرون إلى شيء آخر، وكانت المرأة لازالت تبكي وتبكي! وكنت أتعجب لذلك؛ لأنني لم أكن أعرفها. كنت أريد ألا أسمعها، ولكني لم أجرؤ على أن أقول لها ذلك، فانحنى الحارس فوقها، وتكلم معها، ولكنها هزت رأسها، وتمتمت ببعض الكلمات، وواصلت بكاءها بنفس الانتظام. اقترب مني الحارس، ثم جلس بجانبي، وبعد برهة أخبرني دون أن ينظر إلى: «لقد كانت كثيرة الارتباط بالسيدة والدتك. وتقول: إنها كانت صديقتها الوحيدة هنا، والآن وقد رحلت فلم يعد لها أحد»..

مكثنا وقتا طويلا على تلك الحال. ومع الوقت قلت تنهدات وصرخات المرأة، ثم توقفت في نهاية الأمر. لم أعد أشعر بالنوم، ولكني كنت متعبا، وأشعر بألم في الكليتين، لقد صار الصمت مؤلما. ومن وقت لآخر فقط كنت أسمع صوتا دون أن أدري ما هو، ومع الوقت اكتشفت أن بعض المسنين هم الذين كانت تصدر عن أفواههم تلك الطقطقة العجيبة، ولم يكونوا هم يلاحظون ذلك، فقد كانوا مشغولين بهمومهم، حتى إنني كدت أعتقد أن تلك الميتة – المسجّات في وسطهم – قد لا تعني شيئا بالنسبة لهم، ولكنني أومن الآن أن ذلك كان اعتقادا خاطئا.

ثم شربنا القهوة التي قدمها لنا الحارس، وبعدها، لا أدري ما حدث. مرت الليلة. وأذكر أنني كنت قد فتحت عيني فوجدت أن المسنين ينامون جميعا، فيما عدا واحدا فقط، كان يضع ذقنه فوق ظهر يديه المستندتين إلى عصاه، وكان ينظر إلى وكأنه لا ينتظر سوى أن أستيقظ، ثم نمت ثانية. وبعدها استيقظت على ألم متزايد في الكليتين، ثم بدأ الصبح ينبلج فوق النافذة. وبعدها استيقظ أحد المسنين واستمر يسعل لمدة طويلة، فأيقظ الآخرين، وعندما قال الحارس: إن عليهم أن يرحلوا، نهضوا. كانت تلك الليلة غير المريحة قد أعطت لوجوههم لونا كالرماد. وعند خروجهم – دهشت كثيرا؛ لأنهم راحوا جميعا يشدون على يدي، وكان تلك الليلة التي قضيناها معا – دون أن نتبادل كلمة واحدة – قد زادت الألفة بيننا.

لقد كنت منهكا. ولقد أخذني الحارس إلى حيث يقطن، فاغتسلت وشربت بعض القهوة باللبن وكانت لذيذة. وعندما خرجت، كان النهار قد طلع تماما، وكانت السماء تميل إلى الاحمرار، فوق المرتفعات التي تفصل مارنجو عن البحر، وكانت الرياح القادمة تحمل إلينا رائحة من الملح. لقد كان واضحا أنه سيكون جميلا. لقد انقضى وقت طويل منذ أن كنت قد ذهبت إلى الريف، ولقد أحسست بالمتعة حتى إنني كنت سأذهب للنزهة إن لم تكن هناك أمي.

رحت أنتظر في الفناء. كنت أشم رائحة الأرض حديثة الحرث، ولم أعد في حاجة إلى النوم، ثم فكرت في زملائي بالمكتب، لابد أنهم يستيقظون في تلك الساعة للذهاب إلى العمل،

إنها من أصعب الساعات بالنسبة لي. وبينما كنت أفكر في تلك الأشياء، إذا بجرس يدق داخل المبنى. وعلى إثر ذلك حدثت جلبة خلف النوافذ، ثم هدأ كل شيء. كانت الشمس قد صعدت أكثر إلى السماء، وبدأت تبعث بالحرارة إلى قدمي. عبر الحارس الفناء وقال: إن المدير يطلبني، فذهبت إلى مكتبه، فجعلني أوقع على بعض الأوراق. وقد لاحظت أنه كان يرتدي ملابس سوداء وبنطلونا مخططا، ثم تناول التليفون وقال: «إن عمال الدفن موجودون هنا منذ فترة. وسوف أطلب إليهم أن يغلقوا التابوت. فهل ترغب في رؤية أمك مرة أخيرة؟» فقلت: لا. فأصدر أمرا تليفونيا: «فيجاس، قل للرجال أن يبدؤوا عملهم».

ثم قال لي: إنه سوف يحضر مراسم الدفن، وقد شكرته. فجلس خلف مكتبه، وعقد ساقية القصيرتين، ثم أخبرني بأننا – هو وأنا – سنكون وحيدين مع الممرضة المناوبة فقط؛ فالنزلاء لا يسمح لهم في العادة بحضور الدفن. فهو يتركهم فقط يسهرون إلى جانب الميت، مراعاة – ال قال – «للناحية الإنسانية». ولكنه في هذه المرة قد أعطى الإذن لأحد أصدقاء أمي المسنين ويدعى «توماس بيريز» أن يصحب الركب. قال المدير ذلك وهو يبتسم، ثم أضاف «إنها نوع من العاطفة الصبيانية. ولكنه والسيدة والدتك كانا صديقين لا يفترقان. وفي الدار كان النزلاء يمازحونهم، وكانوا يقولون لبيريز: «إنها خطيبتك» فكان يضحك، وكان يسعدها، وقد تأثر لموتها تأثرا كبيرا، فلم أستطع أن أرفض طلبه بالحضور، ولكن وبناء على نصيحة الطبيب فقد منعته من أن يسهر ليلة أمس.

جلسنا في صمت لفترة طويلة، ثم نظر المدير من النافذة، وبعد لحظات قال: «ها هو قس مارينجو قد حضر قبل موعده» ثم أخبرني أن المسافة إلى كنيسة القرية تستغرق ثلاثة أرباع الساعة على الأقل. هبطنا الدرج، وأمام المبنى كان هناك القس واثنان من أطفال القداس، وكان أحدهما يحمل موقدا للبخور، فانحنى القس ناحيته وراح يضبط طول السلسلة الفضية. عندما وصلنا نهض القس واقفا، وناداني بقولة «يا بني» | وقال بعض الكلمات. ثم دخل الحجرة فتبعته.

كانت مسامير التابوت قد دقت تماما. وكان هناك أربعة رجال يتشحون بالسواد، في نفس الوقت سمعت المدير يقول: إن العربة تنتظر على الطريق وإن القس قد بدأ صلواته بالفعل، ثم خرجنا: المدير وأنا. وأمام البيت، كانت هناك سيدة لا أعرفها، فقام المدير بواجب التعارف قائلا: «السيد مرسو». ولكني لم أسمع اسمها بل فهمت فقط أنها الممرضة المناوبة. وأحنت هي – دون أن تبتسم – وجهها العظمى الطويل، ثم اصطففنا لنسمح لأمي بالمرور، ورحنا نتبع الحالين، حتى خرجنا من الدار. أمام الباب كانت هناك العربة، طويلة، لامعة. إلى جانبها كان هناك القائد، وهو رجل قصير ذو ملابس مضحكة، وعجوز آخر يبدو في حالة ذهول. ففهمت أنه السيد «بيريز». كان يرتدي قبعة طرية ذات حواف مستديرة عريضة (خلعها عندما مر التابوت من الباب)، وبذلة ذات سروال يضيق عند الحذاء، ورباط عنق أسود صغير بالنسبة

لياقته البيضاء، وكانت شفتاه ترتعشان تحت أنفه المزين بالكثير من النقاط السوداء، وشعوره البيضاء تخرج من بينها أذناه الكبيرتان المتهدلتان بلونها الأحمر الذي يتعارض تماما مع وجهه الشاحب.

كان القس يسير في المقدمة، تتبعه العربة، ومن حولها الرجال الأربعة، وفي الخلف كان هناك المدير وأنا، وفي مؤخرة الركب الممرضة المناوبة والسيا بيريز.

كانت السماء امتلأت بالشمس. وبدأت حرارتها تثقل على الأرض وتزيد بسرعة من سخونتها. ولست أدري لماذا انتظرنا طويلا قبل أن نبدأ المسير.

كنت أشعر بالحرارة تحت ملابسي السوداء. رحت أنظر إلى الريف من حولي عبر أشجار السرو الباسقة الممتدة حتى المرتفعات القريبة من السماء، وإلى الأرض البنية والخضراء، وإلى البيوت القليلة الجميلة. لابد أن يكون الليل في تلك البقاع هادئا وحزينا.

ثم بدأنا المسير، فلاحظت أن «بيريز» كان به عرج خفيف. ومع الوقت كانت العربة تزيد من سرعتها، وكان هو يتأخر. واحد من الرجال المحيطين بالعربة تأخر هو أيضا، وصار يسير بمحاذاتي. كنت مندهشا من السرعة التي صعدت بها الشمس إلى كبد السماء، وكنت قد لاحظت منذ فترة أن الريف من حولنا قد امتلأ بطنين الحشرات وطقطقة الأعشاب. وبدأ العرق يسيل فوق جبيني، ونظرا لأنه لم يكن بحوزتي قبعة، فقد كنت أروح عن وجهي بمنديلي، فقال لي عامل الدفن شيئا لم أسمعه، وفي نفس الوقت راح يمسح رأسه بمنديل في يده اليسرى، فيما كانت يده اليمنى ترفع حافة قبعته، فقلت له: «ماذا؟» فردد وهو يشير إلى السماء: «إنها تحرق» فقلت: «نعم» وبعد قليل سألني: «هل هذه والدتك؟» فقلت، «نعم» | فقال: «وهل كانت عجوزا؟» فقلت: «بعض الشيء لأنني لم أكن أعرف عمرها على وجه التحديد» وبعدها صمت الرجل. استدرت فرأيت بيريز العجوز على بعد خمسين مترا إلى الخلف. كان يسرع الخطأ وقبعته تتأرجح في يده. ورأيت المدير أيضا، كان يمشي في هدوء، دون أية حركة زائدة، وبعض قطرات العرق كانت تلمع فوق جبهته، ولكنه لم يمسحها.

ثم خيل إلى أن الركب قد زاد من سرعته. ومن حولي، كان الريف – كما هو – وضاء يفيض بالشمس، وبالسماء اللامعة. وفي وقت ما كنا قد مررنا فوق جزء من الطريق حديث الرصف، وكانت الشمس قد أذابت القار. فكانت الأرجل تغوص به وتفتح فيه أخاديد لامعة، وفوق العربة كانت قبعة | الحوذي، المصنوعة من الجلد المدبوغ، تبدو وكأنها قد خلطت بتلك العجينة السوداء.

كنت أحس بالدوار، بين ألوان السماء الزرقاء والبيضاء والقار الأسود اللامع، والملابس السوداء الداكنة، والعربية السوداء الناصعة. كل هذا، إضافة إلى الشمس ورائحة الجلد والروث والطلاء، والبخور، وتعب ليلة الأمس – كل هذا وذاك كان يزيغ مني الفكر والبصر.

واستدرت مرة ثانية: خيل إلى أن بيريز كان بعيدا جدا، ضائعا وسط هالة من الحرارة. ثم لم أره بعد ذلك، فبحثت عنه بعيني فوجدت أنه كان قد ترك جادة الطريق وراح يعبر الحقول. ونظرا لأن الطريق أمامي كان معوجا، فقد فهمت أن بيريز – الذي كان يعرف جيدا تلك البقاع – كان يختصر الطريق ليلحق بنا. وبالفعل لحق بالركب عند المنعطف، ثم فقدناه من جديد، فلقد راح يعبر الحقول وهكذا عدة مرات، ثم أحسست بالدماء تضرب في رأسي.

بعد ذلك مر كل شيء في سرعة وثقة حتى إنني لم أعد أذكر شيئا. هناك شيء واحد فقط: عند مدخل القرية، كلمتني الممرضة المناوبة، وكان لها صوت لا يتناسب مع وجهها، صوت رخيم مرتعش، قالت: «إذا سرنا ببطء فقد نصاب بضربة شمس، وإذا أسرعنا فسوف نبتل بالعرق، وفي الكنيسة سوف يصيبنا البرد، لقد كانت على حق، فليس هناك من مخرج مضمون. إن هناك أيضا بعض المناظر التي لازلت أذكرها: مثلا، وجه بيريز عندما لحق بنا بالقرب من القرية للمرة الأخيرة، ففوق ذلك الوجه كانت هناك دموع كبيرة ناجمة عن الحزن والتعب، ولكنها لم تكن تسيل نتيجة التجاعيد. بل كانت تمتد وتتلاقى وتكون طبقه من المياه فوق ذلك الوجه المحطم.

كان هناك أيضا منظر الكنيسة والفلاحين فوق الأرصفة، والورود الحمراء |

فوق المقابر والإغماء الذي أصاب بيريز، ثم الأرض التي في لون الدم التي كانوا يهيلونها فوق أمي، والجذور البيضاء المختلطة بها، والفاس، والأصوات، والقرية، والانتظار أمام المقهى، وضوضاء الموتور التي لا تنتهي، ثم سعادتي عندما دخل الأتوبيس إلى أضواء الجزائر العاصمة وعندما فكرت في أنني سوف أنام الاثنتي عشرة ساعة القادمة.

عندما استيقظت، فهمت لماذا كان رئيسي يبدو غاضبا حينا طلبت إليه يومين إجازة ... فإن اليوم هو السبت. لقد كنت نسيت ذلك، ولكن ما إن استيقظت حتى راودتني تلك الفكرة. فرئيسي – وهذا طبيعي – كان قد فكر في أنني سوف ينتهي بي الأمر للحصول على أربعة أيام إجازة، عند إضافة يومي السبت والأحد، وذلك شيء لا يمكن أن يسعده. ولكن – من ناحية – فليس الذنب ذنبي إذا كانوا قد دفنوا أمي أمس بدلا من اليوم. ومن الناحية الأخرى، فإنني كنت سآخذ السبت والأحد في جميع الأحوال. ولكن كل ذلك بالطبع لا يمنع من أن أتفهم موقف رئيسي في العمل.

كان النهوض صعبا؛ لأنني كنت لا أزال متعبا منذ يوم أمس. وبينها كنت أحلق ذقني رحت أتساءل عما سأفعله، ثم قررت أن أذهب للاستحمام. أخذت الترام للذهاب إلى حمامات الميناء، وهناك نزلت إلى المياه. كان هناك خلق كثير. وقابلت أيضا في الماء مارى كاردونا موظفة الآلة الكاتبة السابقة بالمكتب، التي كنت أحلم بها في ذلك الوقت، وكانت هي تحلم بي على ما أعتقد، ولكنها كانت قد رحلت، فلم يكن لدينا الوقت. ساعدتها على أن تصعد فوق عوامة،

وأثناء ذلك تعمدت أن ألمس صدرها. كنت لازلت تحت الماء فيها كانت هي ترقد فوق العوامة، ثم استدارت ناحيتي، كان شعرها يتهدل فوق عينيها فيما كانت تضحك، قفزت إلى جانبها فوق العوامة، كان الجو جميلا، وتظاهرت بالمزاح فأملت برأسي إلى الخلف حتى استقر فوق بطنها، فلم تقل – هي – شيئا، وبقيت – أنا – على تلك الحال، كانت السماء أمام عيني جميلة ذهبية زرقاء، وتحت رقبتي كان بطن مارى ينبض في رقة. بقينا وقتا طويلا – شبه نائمين – فوق العوامة. وعندما اشتدت الشمس، ألقت مارى بنفسها في الماء، فتبعتها حتى لحقت بها وأحطت خاصرتها بذراعي، ورحنا نسبح معا، وكانت لاتزال تضحك. وعلى الرصيف، عندما كنا نجفف أجسادنا قالت: «أنا | أكثر منك سمرة» فسألتها إن كانت ترغب في الذهاب إلى السينما هذا المساء، فضحكت وقالت: إنها تريد أن ترى فيلا من أفلام «فرناندیل».. عندما ارتدينا ملابسنا، بدت وكأنها مذهولة لكوني أرتدي رباط عنق أسود، وسألتني إذا كنت في حداد، فقلت: إن أمي قد ماتت، فأرادت أن تعرف منذ متى فأجبت: «منذ الأمس» فتراجعت للخلف في دهشة، ولكنها لم تقل شيئا. كنت أريد أن أقول لها: إن ذلك ليس ذنبي، ولكنني توقفت لأنني تذكرت أنني كنت قد قلت ذلك لرئيسي من قبل، ثم إن هذا | قد لا يعني شيئا. وعلى أية حال، فنحن دائما خطاؤون.

في المساء كانت ماري قد نسيت كل شيء. كان الفيلم مضحكا في بعض الأحيان، ولكنه كان أحمق في غالبها. وكانت ساقها ملتصقة بساقي، فرحت أداعب ثدييها. وقرب نهاية الفيلم قبلتها، وعند الخروج جاءت معي إلى البيت.

عندما استيقظت، كانت مارى قد رحلت. لقد كانت قد شرحت لي أنها يجب أن تذهب لزيارة خالتها، ثم تذكرت أن اليوم هو الأحد، وقد ضايقني. ذلك، فلم أكن أحب إيام الآحاد، وعليه فقد استدرت في سريري، وفوق رائحة الملح التي كانت شعور ماري قد تركتها استغرقت في النوم حتى الساعة العاشرة، ثم دخنت بعض السجائر في السرير حتى قارب النهار على الانتصاف. لم أكن أريد تناول طعام الغداء عند سيلست كالعادة، لأنه بالتأكيد سوف يطرح على الكثير من الأسئلة، وأنا لا أحب ذلك. وعليه فقد قمت بطهي بعض البيض وأكلته بدون خبز؛ لأنني لم أكن أريد أن أخرج من البيت، خصيصا لشراء الخبز.. بعد الغداء أحسست بقليل من الضيق، فرحت أدور في الشقة. لقد كانت مناسبة عندما كانت أمي هنا، أما الآن فقد صارت كبيرة لي وحدي، حتى إنني قد نقلت طاولة الطعام إلى غرفتي، فلم أعد أحتاج إلى غير تلك الغرفة، ولم أعد أعيش إلا فيها بين مقاعد القش القديمة، وخزانة الثياب ذات المرأة التي أصابها الاصفرار، والسرير النحاسي القديم، وكل ماعدا ذلك فمصيره إلى الإهمال. ولكي أفعل شيئا فقد تناولت صحيفة قديمة ورحت أقرأها، ثم قطعت إعلانا عن نوع من أنواع الملح ولصقته في كراسة قديمة، تعودت أن ألصق بها كل ما أجده في الصحف مما يبعث على الضحك، ثم غسلت يدي، وذهبت أجلس في الشرفة.

كانت حجرتي تطل على الشارع الرئيسي. وكان الجو جميلا، ومع ذلك لم يكن هناك إلا القليل من الناس المسرعين. في البداية كانت عائلات بنتان ذات لباس فوق الركبة وتتعثران في المسير، وبنت صغيرة برباط شعر وردي اللون كبير الحجم وحذاء أسود لامع، وإلى الخلف أم ضخمه في ثوب من الحرير البني وأب قصير نحيف كنت قد رأيته من ذي قبل، كان يرتدي قبعة من القش، | ورباط عنق كالفراشة وبيده عصا. عندما رأيته مع زوجته، فهمت لماذا يلقبونه في الحي بالمحترم. بعد قليل راح الشباب يمرون، شعور مدهونة، وأربطة عنق حمراء، وجاكتات تضيق عند الخاصرة، بجيوب مشغولة وأحذية عريضة، ففهمت أنهم ذاهبون إلى السينما؛ ولذلك كانوا يرحلون مبكرين، وكانوا مسرعين إلى ناحية الترام وهم يضحكون بقوة.

بعد ذلك صار الشارع خاليا من المارة. ويبدو أن الأفلام في دور العرض قد بدأت في ذلك الوقت؛ فلم يعد بالشارع سوى أصحاب الحوانيت والقطط. كانت السماء صافية دون بريق واضح فوق أشجار الفيكس على جانبي الطريق. وعلى الرصيف المقابل، أخرج بائع التبغ مقعدا وضعه أمام حانوته ثم امتطاه واتكأ بذراعيه فوق مسنده. والترام الذي كان مزدحما منذ فترة قد صار فارغا الآن. وفي «مقهى بيرو» الصغير، إلى جانب بائع التبغ، راح الصبي يكنس الصالة الخالية. إنه حقا يوم الأحد.

أدرت معقدي ووضعته كما فعل بائع التبغ حيث وجدت أن ذلك أكثر راحة، ودخنت سيجارتين، ثم دخلت لأجلب قطعة من الشكولاتة، وعدت ألتهمها أمام النافذة. بعد قليل اسودت السماء، فاعتقدت أنها سوف تمطر، ولكنها عادت فتكشفت بعد قليل، لكن تلك الزوبعة كانت قد تركت الشوارع في ظلام، فجلست وقتا طويلا أنظر إلى السماء..

عند الساعة الخامسة وصلت بعض الترامات في ضوضاء، وكانت محملة بمجموعات من المتفرجين القادمين من أحد ملاعب الضواحي. الترامات التالية كانت تحمل اللاعبين أنفسهم، فقد تعرفت عليهم من حقائبهم الصغيرة المتشابهة. كانوا يغنون ويصرخون ملء حناجرهم بأسماء ناديهم، وبعضهم أشار إلى بالتحية، وأحدهم صرخ قائلا: «لقد هزمناهم!» | فهززت رأسي وأنا أقول «حسنا». ومنذ تلك اللحظة بدأت السيارات تتوافد.

فوق الأسطح كانت السماء قد احمرت، ومع مولد المساء بدأت الشوارع تمتلئ، فقد عاد المتنزهون قليلا قليلاً. وها هو السيد المحترم وسط الآخرين. وكان الأطفال يبكون ويمشون إلى الخلف متكاسلين، ثم دفعت دور السينما بحشود من المتفرجين إلى الشارع. كان الشباب يروحون ويجيئون على الرصيف المقابل، وكانت فتيات الحي يمشين متماسكات الأيدي، وكان الشباب يمشون خلفهن ويلقون إليهن ببعض النكات، فكن يضحكن ويدرن رؤوسهن، وبعض ممن كنت أعرفهن أشرن إلى بالتحية.

ثم أضيئت مصابيح الشوارع فجأة، فشحبت النجوم القليلة التي كانت قد ظهرت في الليل. أحسست أن عيني متعبتان من النظر إلى الأرصفة وما عليها من الناس والأضواء، كانت المصابيح تعكس أضواءها فوق كل شيء، حتى الشعور اللامعة، والابتسامات، والحلى. بعد قليل صارت الترامات أقل، وصار الليل حالكا فوق الأشجار والمصابيح، وخلا الشارع من الناس، وبدأت القطط تعبر الشارع في بطء، عند ذلك فكرت في أني يجب أن أتناول بعض الطعام. كنت أشعر ببعض الألم في الرقبة؛ لأنني مكثت لفترة طويلة مستندا إلى ظهر المقعد. نزلت واشتريت بعض الخبز والمكرونة، ثم طهوت بعض الطعام وتناولته واقفا، ثم أردت أن أدخن سيجارة أمام النافذة، ولكن الهواء كان قد صار باردا وكنت أشعر بالقشعريرة. أغلقت النافذة وعدت إلى الداخل وأنا أفكر في أن هذا هو يوم أحد آخر قد ولى دون رجعة، وأن أمي قد دفنت، وأنني سأعود غدا إلى العمل، وأنه – في نهاية الأمر – لا شيء قد تغير.

اليوم، في المكتب، عملت كثيرا ودون توقف. وكان رئيسي طيبا. وقد سألني عما إذا كنت متعبا وأيضا عن سن أمي، فقلت «حوالي الستين، حتى لا أكون مخطئا، ولا أعرف لماذا بدا عليه الارتياح واعتبر أن الأمر قد انتهى.

كان هناك الكثير من الأوراق ومستندات الشحن فوق مكتبي، وكان على أن أعمل على تصريفها. قبل مغادرة المكتب للغداء غسلت يدي، عند منتصف النهار أجد دائما سعادة في ذلك الغسيل، أما في المساء فإن المنشفة الدوارة التي نستخدمها تكون مبتلة تماما. في يوم من الأيام أبديت تلك الملاحظة أمام رئيسي، فقال إن ذلك أمر مؤسف، ولكنه مع ذلك عديم الأهمية. خرجت من المكتب متأخرا – في الثانية عشرة والنصف – بصحبة إيمانويل، الذي يعمل في التوزيع. وحيث إن المكتب يقع في مواجهة البحر، فقد قضينا بعض الوقت ننظر إلى سفن الشحن في الميناء الذي تلهبه الشمس. في تلك اللحظة وصلت عربة نقل وسط جلبة كبيرة. فقال إيمانويل «هيا نلحق بها» فرحت أجرى. سبقتنا العربة فانطلقنا في إثرها. كنت تائها وسط الضوضاء والتراب ، ولم أعد أوي شيئا أو أحس شيئا سوى ذلك الجري غير المنتظم وسط الرافعات والآلات والقوارب والصواري التي كانت تتراقص في الأفق . لحقت بالعربة وقفزت فوقها وهي منطلقة ، ثم ساعدت إيمانويل . كنا نتنفس بصعوبة فيما كانت العربة تقفز فوق بلاط الرصيف غير المستوى، وسط التراب وأشعة الشمس.

كنا نتصبب عرقا حينما وصلنا عند سيلاست. كان دائما كما تعودناه، بمريلته وكرشه الكبير وشاربه الأبيض، فسألني «إذا ما كانت الأمور على ما يرام رغم ما حدث»، فأجبته بنعم وقلت: إنني جائع. أكلت بسرعة وشربت قهوة، ثم عدت إلى البيت، حيث نمت قليلا؛ لأنني كنت قد شربت بعض النبيذ. عند الاستيقاظ أحسست برغبة في التدخين. كان الوقت قد تأخر، فجريت كى ألحق بالترام. عملت بجد طوال فترة ما بعد الظهيرة. كان الجو حارا

بالمكتب، وفي المساء عند الخروج، كنت سعيدا بالعودة في بطء مشيا على الأقدام على طول الميناء. عدت مباشرة إلى البيت؛ فقد كنت أريد إعداد بعض البطاطس المسلوقة.

بينما كنت أصعد السلم المظلم، وقعت على سالامانو العجوز، جاري في نفس الطابق. كان برفقة كلبه، فمنذ ثماني سنوات وهما لا يفترقان. كان الكلب مصابا بمرض جلدي – الحكة – فيما أعتقد، مما أفقده كل شعره تقريبا وغطى جلده بحراشيف بنية اللون، ونظرا لأنهما كانا يعيشان معا وحيدين في نفس الحجرة الضيقة، فقد انتهى الأمر بأن صارا متشابهين؛ فسالامانو قد امتلأ وجهة بحراشيف تميل إلى الاحمرار فيها تحولت شعيراته القليلة الباقية إلى الاصفرار، وفيها اكتسب الكلب من سيده ذلك الهيكل المحدب والرقبة المشدودة والرأس المائل إلى الأمام. كانا كمن خلقا من نفس السلالة، ومع ذلك كانا دائمي العداء مرتين يوميا، في الحادية عشرة وفي السادسة، كان الرجل يصحب كلبه للنزهة، منذ ثماني سنوات لم يتغير لها ميعاد أو خط سير، فعلى امتداد شارع ليون، كان الكلب يجذب الرجل، ويستمر ذلك إلى أن يصرخ فيه سالامانو العجوز، ثم يسبه ويضربه. عند ذلك يرقد الكلب من الخوف ويترك نفسه يجر، ويصبح على العجوز أن يجذبه. بعد فترة يكون الكلب قد نسي، فيبدأ من جديد جذب سيده، الذي لا يلبث أن يسبه ويضربه من جديد، وعندها يقف الاثنان فوق الرصيف يتبادلان النظرات، الكلب في رعب، والرجل في حقد. وهكذا كل يوم. وعندما يريد الكلب أن يتبول، لم يكن العجوز يترك له الوقت ليتم ذلك، وكان يجذبه، فكان الكلب يترك وراءه خطا طويلا من نفط البول الصغيرة، وإذا تصادف أن تبول الكلب في الحجرة، فإنه يضرب على ذلك، وهذا هو الحال منذ ثماني سنوات وحتى اليوم.

سيليست يقول إن «ذلك أمر محزن، ولكن ما من أحد – في الواقع – يعرف ما هو المحزن في الأمر. عندما وقعت عليه، كان سالا مانو يسب كلبه. كان يقول له: «يا قذر! يا جيفة!» وكان الكلب يتوجع، فقلت: | «مساء الخير»، فلم يرد، كان فقط يقول «قذر! جيفة!» فيما كان منحنيا فوق كلبه، محاولا إصلاح سلسلته المعدنية، فرفعت من صوتي، وعندها قال في غضب: «ألا يزال – ذلك الرجل – هنا!» ثم رحل وهو يجذب الحيوان الذي كان يتألم.

في تلك اللحظة، دخل جاري الثاني بالطابق، في الحارة، يقولون :

إنه يكسب قوته من وراء النساء. وإذا سأله أحد عن مهنته كان يقول: إنه يعمل بأحد المتاجر» بصفة عامة لم يكن ذلك الرجل محبوبا، لكنه كان يكلمني كثيرا، وفي بعض الأحيان، كان يمضي لدى بعض الوقت؛ لأنني كنت أنصت إليه، وأجد ما يقوله مها، وليس عندي – على أية حال – من الأسباب ما يمنعني من التحدث إليه. اسمه ريمون سينتيس، قصير القامة، عريض المنكبين، وله أنف يشبه أنوف الملاكمين، ويحافظ دائما على أن يكون ملبسه لائقا. ولقد قال أيضا وهو يتحدث عن سالا مانو: أليس ذلك أمرا محزنا! وسألني إن كان الأمر يسبب إلى القرف، فأجبته بالنفي.

صعدنا إلى الطابق، وعندما كنت على وشك أن أتركه قال: «يوجد لدى بعض السجق وبعض النبيذ، فهل تريد أن تأكل شيئا من ذلك معي؟» فوجدت أن ذلك سيعفيني من مهمة الطبخ، ووافقت. هو أيضا ليس لديه سوى حجرة واحدة، ومطبخ بدون نافذة. فوق سريره كان هناك تمثال الملاك من الرخام الوردي والأبيض، وبعض صور المشاهير، وصورتان أو ثلاث لنسوة عاريات. كانت الحجرة قذرة والسرير غير منظم. في بادئ الأمر، أشعل الرجل مصباح البترول، ثم أخرج من جيبه رباطا | عجيبا وراح يربط يده اليمنى، فسألته عما به، فقال: إنه تشاجر مع شخص كان قد تحرش به.

وأضاف: «أتعرف يا سيد ميرسو، أنا لست فظا، ولكنني حامي الطباع. لقد قال لي ذلك الشخص: «انزل من الترام إن كنت رجلا»، فقلت له «تعقل وكن هادئا، فقال: إنك لست رجلا. فنزلت وقلت له: «يكفي هذا وإلا فسوف أسويك» فقال باستفزاز ماذا ؟، فناولته واحدة، فسقط أرضا، فرحت أرفعه فرفسني بقدمه وهو على الأرض، فما كان مني إلا أن ضربته بركبتي، فسالت الدماء من وجهه، وعندها سألته إن كان هذا يكفيه، فقال: «نعم»..

في أثناء كل ذلك الوقت، كان سينتيس يعالج رباطه، فيها كنت جالسا على حافة السرير. فأضاف: «ومن ذلك يمكنك أن ترى بنفسك أنني لم أكن البادئ. بل هو الذي أثارني». فقلت له: إن ذلك صحيح. عند ذلك أوضح أنه يريد أن يطلب إلى النصيحة في تلك المسألة؛ لأنني – من وجهة نظره – رجل قد خبرت الحياة وأستطيع مساعدته، وعندها سنصير أصدقاء، فلم أقل شيئا، فسألني إن كنت أريد أن أكون صديقه، فقلت: إن الأمر يتساوى لدي، فظهر عليه السرور، ثم أخرج السجق وقام بطهيه في المقلاة، وفي صمت وضع الأكواب والأطباق وزجاجتين من النبيذ.

أثناء الطعام بدأ يروي حكايته. تردد في البداية، ثم قال: «إنني أعرف سيدة – ولكي أكون دقيقا – فإنها كانت عشيقتي» وراح يقول: إن الرجل الذي تشاجر معه هو شقيق تلك المرأة، وإنه يعرف ما يقولونه عنه في الحارة، ولكنه رجل على خلق وإنه يعمل بأحد المتاجر. ولم أقل شيئا.

ثم راح يقول: أعود إلى حكايتي، لقد لاحظت أن هناك خدعة» وأخذ يضيف أنه كان يعطيها ما يكفي بالضبط لكي تعيش، وكان يدفع بنفسه إيجار حجرتها، ويعطيها عشرين فرنكا في اليوم للطعام. ثلاثمائة فرنك للحجرة، وستمائة للطعام، وزوجا من الجوارب بين الحين والآخر، مما يصل إلى الألف فرنك. وحضرتها لم تكن تعمل، وكانت تقول: إن ذلك طبيعي وتشتكي من قلة ما أعطيه لها، فقلت لها: ولم لا تعملين ولو لنصف اليوم؛ لتخففي عني أعباء كل تلك الأشياء الصغيرة؟ ولقد اشتريت لك فستانا من قطعتين هذا الشهر، وأدفع لك عشرين فرنكا في اليوم، بالإضافة إلى الإيجار، فيهما – أنت – تتناولين القهوة مع أصدقائك. أنا لا

أفعل سوى الخير، وأنت تقابلينني دائما بالشر، ولكنها رغم ذلك ظلت لا تعمل. وكانت دائما تقول: إنها لا تستطيع العمل، ومن هنا لا حطت أن في ذلك الأمر نوعا من الخداع.

ثم حكى لي أنه كان قد وجد في حقيبة يدها واحدة من أوراق اليانصيب، وأنها لم تستطع أن تصف له من أين جاءت بالنقود التي ابتاعتها بها. بعد ذلك، وجد لديها «دليلا على أنها قد اشترت سوارين من محل حبل الوداد». ولم يكن – هو – يعلم شيئا عن هذين السوارين. ثم قال: «وعليه فقد رأيت أنها تخدعني، فهجرتها، ولكنني ضربتها قبل ذلك وقلت لها حقيقتها، وأنها ليست إلا داعرة، وقلت لها أيضا يا سيد مي رسو: «إن هناك العديد والعديد ممن يحسدونك على ما أقدمه إليك، وسوف تعلمين – فيما بعد – في أي نعيم كنت ترفلين»..

وقال: إنه في هذه المرة كان قد ضربها ضربا مبرحا، أما قبل ذلك فلم يكن يضربها، وأضاف: «لقد كنت أضربها برفق، فكانت تبكي قليلا، فكنت بعد ذلك أرفه عنها، أما في تلك المرة، فقد كان الأمر جاداه.

وبعد ذلك شرح لي أنه بحاجة إلى نصيحتي ، ثم توقف ليصلح ويضبط المصباح ، وكنت أسمع له ، فيما كنت قد شربت ما يقارب لترا من النبيذ، | فكان رأسي ساخنا ، وكنت أدخن سجائره ؛ لأن سجائري كانت قد نفدت، وكانت ترامات آخر الليل تأتي ومعها بعض الضوضاء البعيدة ، فيها راح ريمون يتابع : إن ما يزعجه أنه لا يزال يشعر نحوها بالحنين ، ولكنه في نفس الوقت يريد أن يعاقبها ، وعليه فإنه يريد أن يطلب إلى شيئا ، وقبل ذلك فإنه يريد أن يعرف رأيي حول ذلك الموضوع ، فقلت : إنه ليس لي رأي، فسألني إن كنت أعتقد أن هناك شيئا من الخداع ، فقلت : يبدو ذلك، ثم سألني إن كنت أعتقد أنه يجب أن يعاقبها، وماذا سأفعل لو أنني كنت مكانه؟ فقلت: إنني متفهم لرغبته في معاقبتها، ولا أدري ماكنت سأفعله إن كنت في مكانه، ثم شربت بعضا من النبيذ، وأشعل هو سيجارة وراح يكشف لي عن خطته: إنه يريد أن يكتب لها خطابا مخادعا ومؤثرا؛ ليجعلها تندم، وعندما تعود إليه باكية سوف ينام معها، ثم يبصق في وجهها ويطردها شر طرده، فقلت: إن ذلك في الواقع عقاب كاف، ولكن ريمون قال: إنه غير قادر على كتابة ذلك الخطاب، وعليه فقد فكر في أنني يمكن أن أساعده. وعندما لم أقل شيئا سألني إن كان يضايقني أن أكتبه في التو واللحظة، فقلت: لا.

فجرع كوبا من النبيذ، ونهض واقفا، ثم أزاح الأطباق وما تبقى من السجق جانبا، ومسح غطاء الطاولة الجلدي في عناية، ثم أخرج ورقة | مربعات، ومظروفا أصفر اللون، وريشة من الخشب الأحمر، ودواية مربعة بها بعض الحبر البنفسجي. وعندما ذكر لي اسم تلك المرأة عرفت أنها من أصل عربي، فكتبت الخطاب محاولا إرضاء ريمون؛ لأنه لم يكن لدى سبب يمنعني من ألا أرضيه، ثم قرأت الخطاب بصوت عال، فراح ينصت وهو يدخن ويهز رأسه، ثم طلب أن أعيد قراءته. لقد كان في غاية | السعادة، حتى إنه قال لي: «لقد كنت متأكدا من أنك قد خبرت الحياة» ثم أضاف: «أنت صديق حقيقي، اعتبارا من الآن» ثم كررها ثانية.

فقلت: نعم، فقد كان ذلك يتساوى لدى فيما كان هو سعيدا بذلك، ثم أغلق الخطاب، وشربنا ما تبقى من النبيذ، ثم جلسنا بعض الوقت ندخن في صمت.

في الخارج، كان الجو هادئا، إلا من صوت سيارة تمر من وقت لآخر، فقلت: «إن الوقت قد تأخر». وكان ذلك هو رأي ريمون أيضا، الذي قال إن الوقت قد مر سريعا. وقد كان ذلك صحيحا إلى حد ما. كنت أشعر بالنوم وكنت متعبا، حتى إن ريمون قد قال: إن على أن أتمالك نفسي. وفي البداية لم أكن قد فهمت ما يعنيه، فقال: إنه قد علم بموت أمي، وإن ذلك كان لابد أن يحدث في يوم من الأيام. وكان ذلك أيضا هو ما أعتقده.

نهضت واقفا، وشد ريمون بحرارة على يدي وهو يقول: إن الرجال دائما ما يتفهمون بعضهم البعض. خرجت وأغلقت الباب خلفي، ووقفت في الظلام. كان البيت هادئا. ومن بئر السلم كانت تأتي ريح مظلمة رطبة، ولم أكن اسمع سوى طنين ضربات الدم في أذني. ومن حجرة سالامانو العجوز، سمعت الكلب يتوجع في ضعف.

عملت بجد طوال الأسبوع، وقد أخبرني ريمون أنه أرسل الخطاب.

وذهبت إلى السينما مرتين برفقة إيمانويل. وأمس كان السبت وقد حضرت مارى، كما كنا قد اتفقنا، كانت رائعة في ثوبها ذي الخطوط الحمراء والبيضاء وصندلها الجلدي. كانت الشمس قد لفحت وجهها فصار كالزهرة. أخذنا الأتوبيس وذهبنا إلى أحد الشواطئ الواقعة بين الصخور على بعد عدة كيلو مترات من الجزائر العاصمة. ولم تكن شمس الساعة الرابعة قوية، ولكن ماء البحر كان دافئا، وكانت هناك بعض الأمواج الطويلة الهادئة.

ثم علمتني ماري إحدى اللعبات: أثناء السباحة كان يجب أن نمط أفواهنا بالزبد الذي كان يوجد فوق الأمواج، وبعد ذلك – ونحن نسبح على ظهورنا – ننفخ الزبد لأعلى كالنافورة ، بعد فترة كان حلقي يؤلمني بفعل الملح فتوقفت ، ثم لحقت بي مارى وقبلتني ورحنا نتدحرج تحت الأمواج .

وعندما ارتدينا ملابسنا على الشاطئ، نظرت إلى ماري بعينيها اللامعتين، فقبلتها وسرنا متلاصقين حتى ركبنا الأتوبيس وعدنا إلى البيت. كنت قد تركت النافذة مفتوحة، فكان شيئا رائعا أن نشعر بليل الصيف الدافئ يتدفق فوق أجسادنا البرونزية اللون.

بقيت مارى معي حتى الصباح، وقلت لها: إننا سنتناول طعام الغداء معا. ونزلت لأشتري بعضا من اللحم. عند صعودي سمعت صوت امرأة في حجرة ريمون. وبعد قليل سمعنا سالامانو العجوز يعنف كلبه، ثم صوت أقدامهما فوق السلالم الخشبية ثم: «يا قذر، يا جيفة»، لقد خرجا إلى الشارع. قصصت على ماري قصتهما فراحت تضحك. كانت تلبس واحدة من بيجاماتي، وكانت قد شمرت الأكمام، فكانت جميلة ورائعة. بعد فترة سألتني إن كنت أحبها،

فقلت: إن ذلك لا يعني شيئا، ولكن يبدو أنني لا أحبها، فظهر الحزن على وجهها. وعندما كنا نعد طعام الغداء، سمعنا أصوات مشاحنات ومشادات عند ريمون.

في البداية كان هناك صوت امرأة، ثم صوت ريمون الذي كان يقول: لقد خدعتيني، لقد خدعتيني» ثم ضوضاء مكتومة، ثم راحت المرأة تصرخ وتصرخ حتى إن الطابق قد امتلأ بالناس في لحظات، فخرجنا نحن أيضا، ماري وأنا. كانت المرأة لاتزال تصرخ وريمون لا يزال يضرب. فقالت ماري: إن ذلك شيء رهيب، فلم أقل شيئا، فسألتني أن أذهب لأستدعي رجل شرطة، فقلت: إني لا أحب رجال الشرطة. وبالرغم من ذلك فقد قدم واحد منهم – بعد لحظات – برفقة أحد ساكني الدور الثاني. طرق رجل الشرطة الباب، ولم نعد نسمع شيئا بالداخل، فأعاد الطرق ثانية، ففتح ريمون في لطف مصطنع وكانت بين شفتيه سيجارة، في حين كانت المرأة تبكي. أسرعت المرأة ناحية الباب وقالت للشرطي: إن ريمون قد ضربها، فسأله الشرطي في حدة: «اسمك» ولما أجابه ريمون قال الشرطي: «انزع سيجارتك من فمك عندما تكلمني»، وعندما تردد ريمون، صفعه الشرطي صفعة قوية فوق وجهه، فسقطت السيجارة على بعد عدة أمتار. تغير وجه ريمون، ولكنه لم يقل شيئا في الحال، وبعدها سأل إن كان بإمكانه أن يستعيد سيجارته من على الأرض، فقال له الشرطي: إنه يستطيع أن يفعل «ولكن عليك أن تعرف – في المرة القادمة – أن رجل الشرطة ليس كأحد المهرجين». في تلك الأثناء كانت الفتاه تبكي وتردد: «لقد ضربني ذلك القواد» فقال ريمون للشرطي: «وهل من حقها – يا سيدي الشرطي – أن تصفني بأنني قواد؟» فأمره الشرطي بأن «يغلق فمه». فاستدار ريمون ناحية الفتاة وقال: «سوف ترين يا صغيرتي، السوف ترين». فأمره الشرطي ثانية أن يغلق فمه، وطلب إلى الفتاة أن ترحل، وعليه هو أن ينتظر في حجرته حتى يتم استدعاؤه إلى قسم الشرطة، | ثم أضاف أن على ريمون أن يخجل من كونه سكران إلى هذه الدرجة التي تجعله يرتعد، فشرح ريمون ذلك قائلا: «أنا لست سكران يا سيدي الشرطي، أنا فقط أقف هاهنا – أمامك وأرتعد رغما عني، «ثم رحل الناس ورحل الشرطي وأغلق ريمون بابه. كنا قد انتهينا – ماري وأنا – من إعداد طعام الغداء، ولكنها لم تكن جائعة، فأكلته – أنا – كله تقريبا، ثم انصرفت – هي – في الواحدة، ونمت – أنا – قليلا.

الجزء الثاني

حوالى الساعة الثالثة ، سمعت طرقا بالباب ، ثم دخل ريمون. بقيت مستلقيا فيها جلس – هو – على حافة السرير. ظل ريمون جالسا في صمت، فسألته عما آل إليه موضوعه ، فقال : إن كل شيء قد تم كما كان مخططا له ، ولكن المرأة قد صفعته، وعندها لم يجد بدا من ضربها ، وبالنسبة لبقية الموضوع فقد رأيت بنفسي كل شيء ، فقلت : يبدو لي الآن أن الفتاة قد عوقبت ، وأنك يجب أن تكون سعيدة ، وكان ذلك هو رأيه أيضا ، وأنه مهما فعل رجل الشرطة فإن ذلك لن يغير شيئا من الضرب الذي نالته ، وأضاف أنه يعرف جيدا رجال الشرطة ، ويعرف كيف يتعامل معهم، ثم سألني إن كنت قد انتظرت منه أن يرد على الصفعة التي وجهها له رجل الشرطة ، فأجبته بأنني لم أنتظر شيئا على الإطلاق ، وأنني بالإضافة إلى ذلك لا أحب الشرطة ، فبدا عليه السرور ، ثم سألني إن كنت أرغب في الخروج ، فنهضت وبدأت أستحم ، وعندها قال : إنه يريدني أن أكون شاهده ، لم يكن ذلك الأمر يضايقني ، ولكني لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أقوله ، ولكن طبقا لرواية ريمون فإنه كان يكفي بأن أقول : إن الفتاة قد خدعته ، فوافقت أن أكون شاهده .

خرجنا معا ، وقدم لي ريمون مشروبا ، ثم لعبنا شوطا من البلياردو فخسرته ، وبعدها عرض ريمون أن نذهب إلى الماخورة ، ولكنني رفضت؛| لأنني لا أحب ذلك ، ثم عدنا ببطء إلى البيت ، وطوال الطريق كان ريمون يردد : كم هو سعيد لنجاحه في معاقبة عشيقته .

من بعيد ، لمحت سالا مانو العجوز على عتبة الباب ، وكان يبدو مضطربا . وعندما اقتربنا لاحظت أن كلبه ليس معه . وكان ينظر من حوله إلى جميع الجهات ، محاولا أن يخترق الظلام ، ومتمتها بكلمات غير مفهومة ، ثم يعود للنظر على طول الشارع بعينيه الصغيرتين الحمراوين ، فسأله ريمون ما به ، ولكنه لم يجب وراح يتمتم : « قذر .. جيفة » وهو مستمر في هياجه، فسألته بدوري عن كلبه ، فقال : إنه قد رحل ، وفجأة انفجر في الحديث قائلا: «لقد صحبته – كالعادة – للنزهة في حقل الملاهي ، وكان هناك جمع كبير من الناس حول البيوت المتنقلة فوقفت أنظر، وعندما أردت الرحيل ، كان قد اختفى . منذ مدة طويلة وأنا أريد أن أشترى له طوقا أقل اتساعا، ولكنني لم أكن أعتقد أبدا أن ذلك القذر يمكن أن يرحل بمثل تلك السهولة .»

راح ريمون يشرح له أن الكلب ربما يكون قد ضل طريقه ، ولكنه لابد أن يعود ، وراح يعدد له أمثلة لكلاب قطعت عشرات الكيلو مترات للعثور على أصحابها ، وبالرغم من ذلك ظل العجوز على اضطرابه وهياجه وهو يقول : « ولكنهم سيأخذونه ، لو أن أحدا عثر عليه واستضافه فسيكون ذلك من حسن الحظ ، ولكن الناس ينفرون منه لحراشيفه ؛ ولذلك فإن

رجال الشرطة سيأخذونه بالتأكيد .. فقلت له : إنه إذا كان الحال كذلك فعليه أن يذهب إلى مستودع الكلاب الضالة ، وسوف يعيدونه له مقابل مبلغ من المال ، فسألني إن كان ذلك المبلغ كبيرا ، ولم أكن أعرف بالتحديد، فراح يصيح في غضب : « أدفع مالا في هذه الجيفة ، لا ، فليبق هناك حتى يموت ! » فضحك ريمون ودخل إلى البيت ورحت أتبعه حتى افترقنا كل إلى شقته .

بعد فترة ، سمعت وقع أقدام العجوز ، ثم طرقا على الباب ، وعندما فتحت قال لي : « اعذرني يا سيد مرسو ، أرجو المعذرة . » فدعوته للدخول ولكنه رفض . كان ينظر إلى قدميه وإلى يديه المرتعشتين ، ودون أن ينظر إلى راح يسألني : « إنهم لن يأخذوه ، قل لي سيد مرسو ، إنهم سوف يعيدونه إلى ، ما الذي سأفعله بدونه ؟ » فقلت له : إنهم يحتفظون بالكلاب لمدة ثلاثة أيام في انتظار من يسأل عنها ، وبعد ذلك فهم يفعلون بها ما يجدونه مناسبا ، فنظر إلى في صمت ثم قال : « ليلة طيبة » ثم أغلق بابه خلفه ، ثم سمعته يروح ويجيء خلف الباب .

ثم سمعت ضوضاء عجيبة فهمت منها أنه يبكي . ولا أعرف لماذا فكرت في أمي في تلك اللحظة ، ولكن كان على أن أستيقظ مبكرا في اليوم التالي ، فدخلت لأنام دون طعام ؛ لأنني لم أكن جائعا .

اتصل بي ريمون تليفونيا في المكتب وقال : إن أحد أصدقائه (وكان قد حدثه عني) بدعوني لقضاء يوم الأحد في كابينة له بالقرب من الجزائر العاصمة ، فقلت : إنني كنت أتمنى ذلك لولا أنني قد اتفقت بالفعل مع إحدى الصديقات لقضاء ذلك اليوم معها ، فقال ريمون على الفور : إنه يدعوها أيضا ، وإن زوجة صديقه ستكون سعيدة بذلك ؛ لأنها لن تكون وحيدة وسط مجموعة من الرجال . .

كنت أريد أن أنهى الاتصال بعد ذلك مباشرة ؛ لأن رئيسي لا يحب كثيرا أن يكلمنا أحد في شئون لاتهم العمل ، ولكن ريمون أضاف أنه كان يستطيع أن ينتظر بدعوته هذه حتى المساء ، ولكنه أراد أن يحذرني من شيء آخر : لقد كان متبوعا طوال اليوم بواسطة مجموعة من العرب ، ومن بينهم شقيق عشيقته السابقة . « فإذا رأيته بالقرب من البيت عند عودتك هذا المساء ، فعليك أن تحذرني . » فقلت له : إنني سأفعل .

بعد ذلك استدعاني رئيس العمل ، فتضايقت ؛ لأنني اعتقدت أنه سيطلب إلى إقلال الاتصالات التليفونية وزيادة العمل ، ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق ؛ فقد قال : إنه سيحدثني عن مشروع لم يتحدد بعد، وقد كان يريد أن يعرف رأيي حول ذلك . لقد كانت لديه النية أن يفتتح مكتبا جديدا في باريس ؛ ليتعامل من هناك مباشرة مع الشركات الكبرى ، وكان

يريد أن يعرف ما إذا كنت مستعدا للعمل هناك ، ثم أضاف : إن ذلك سيسمح لي بالعيش في باريس ، وأيضا بالسفر والرحلات وقال :

« وأنت لا تزال في مقتبل العمر ، وأعتقد أن هذا النوع من الحياة لابد أن يرضيك » ، فقلت : نعم وإن كانت كل تلك الأمور تتساوى لدى ، وعند ذلك سألني إن لم يكن يهمني أن أغير مسار حياتي ، فقلت : إننا لا نستطيع – مهما فعلنا – أن نغير من مسار حياتنا ، وعلى أي حال فإن كل شيء في النهاية يتساوى لدى ، وإن كانت حياتي هنا ليست سيئة على الإطلاق، فبدا عليه الغضب ، وقال إن إجاباتي لا تعني شيئا ، وإنه ليست لدي أية طموحات ، وإن ذلك يجلب الخراب لأية مشروعات . وعندها عدت للعمل . لقد كنت أرغب في ألا أضايقه ، ولكنني لم أكن أرى سببا واحدا يجعلني أغير وأبدل حياتي . فأنا – في الواقع – لست تعيسا. عندما كنت طالبا كانت لدي طموحات كثيرة من ذلك النوع ، ولكن عندما كان لزاما على أن أهجر دراستي ، فهمت على الفور أن كل ذلك ليس له أي أهمية حقيقية .

في المساء ، جاءت ماري إلى المكتب لتصحبني عند الخروج ، وسألتني إن كنت أريد أن أتزوجها ، فقلت : إن ذلك يتساوى لدى ، وإننا نستطيع أن نتزوج إذا كانت تريد ذلك ، ولكنها أرادت أن تعرف إن كنت أحبها . فأجبتها بما كنت قد قلته من قبل ، بأن ذلك لا يعني شيئا ، ولكنني أعتقد بأنني لا أحبها ، فسألتني : « ولماذا تتزوجني إذن ؟ » فقلت : لأن ذلك ليس له أية أهمية ، وإنها إن كانت تريد الزواج ، فأنا مستعد ، فقالت : إن الزواج شيء خطير وهام ، فقلت: «لا» فراحت تنظر إلى في صمت ، ثم تكلمت. كانت تريد أن تعرف – بكل بساطة – إذا ماكنت سأقبل نفس الاقتراح من امرأة أخرى تربطني بها نفس العلاقة ، فقلت : « بالطبع .»| فسألتني إن كنت أعتقد أنها تحبني ، فقلت : إنني لا أعرف شيئا بخصوص ذلك الأمر. بعد لحظة صمت أخرى وهي تحدث نفسها أنني غريب الأطوار ، وأنها ربما كانت تحبني الآن بسبب ذلك ، ولكنها قد تنفر يوما ما لنفس السبب . ونظرا لأنني لم أقل شيئا حيث لم يكن ما أستطيع أن أضيفه، فقد أخذتني من ذراعي وهي تبتسم وتقول : إنها تريد أن تتزوجني، فقلت :| سوف نفعل ذلك متى أردت ، ثم حدثتها عن مقترحات رئيسي ، فقالت : | إنها تود أن تعرف باريس ، فقلت لها : إنني قد عشت فيها لفترة من حياتي ، فسألتني عنها ، وقلت : « إنها قذرة ، وهناك الكثير من الحمام والأرصفة السوداء ، كما أن الناس لونهم أبيض باهت.» |

رحنا نمشي ، وعبرنا المدينة بشوارعها الكبيرة في صمت . كنت أريدها أن تبقى معي ، وقلت : إننا يمكن أن نتناول طعام العشاء معا عند سيلڤست، فقالت : إنها كانت تود ذلك لولا أن لديها شيئا تريد أن تفعله . كنا قد اقتربنا من البيت فقلت لها : « إلى اللقاء » فنظرت إلى وقالت : « ألا تريد أن تعرف ما سأفعله ؟ » فقلت : إنني أريد ذلك ، ولكنني لم أفكر في أن أسألها ، فبدت عاتبة علي ، ثم ضحكت أمام حيرتي ، ثم دنت مني وقبلتني .

رحت أتناول العشاء عند سىلىست ، كنت بالفعل قد بدأت الطعام عندما دخلت امرأة عجيبة ، سألتني أن كانت تستطيع أن تجلس على نفس الطاولة ، بالطبع تستطيعين . كانت حركاتها سريعة وعيناها لامعتين ووجهها صغيرا ، خلعت المرأة معطفها بسرعة ، وجلست ، ثم ألقت نظرة محمومة على قائمة الطعام ، ثم نادت سىلىست وطلبت فورا ودفعة واحدة كل ما تريده بطريقه محددة وسريعة. وبانتظار الطعام ، فتحت حقيبة اليد وأخرجت ورقة وقلما ، وجمعت الحساب مقدما ، ثم أخرجت من حافظة صغيرة – مملوءة بالعملات الفضية – المبلغ المطلوب بالضبط، ووضعته أمامها . في تلك اللحظة ، أحضروا لها الطبق الأول فالتهمته على الفور . وفي انتظار الطبق الثاني ، أخرجت من حقيبة اليد قلها ومجلة تعنى بمواعيد البرامج الإذاعية الأسبوعية ، وبكثير من العناية راحت تضع علامات أمام كل البرامج تقريبا واحدا بعد الآخر .

وحيث إن المجلة يزيد عدد صفحاتها على الدستة ، فقد راحت تتابع ذلك العمل الدقيق طوال الطعام . وعندما انتهيت من طعامي كانت لاتزال تضع علاماتها بنفس الاهتمام ، ثم نهضت ، وارتدت معطفها في حركات محددة كالإنسان الآلي ، ثم رحلت . ونظرا لأنه لم يكن لدي ما أفعله ، فقد خرجت أنا أيضا ورحت أتبعها ... على كافة الرصيف ، راحت المرأة تسير في سرعة وثقة عجيبتين دون أن تحيد عن طريقها أو تنظر خلفها ، ثم انتهى بي الأمر إلى أن فقدت أثرها ، فعدت أدراجي وأنا أفكر في تلك المرأة الغريبة الأطوار ، ولكني ما لبثت أن نسيتها تماما .

وجدت العجوز سالامانو على عتبة الباب ، فدعوته للدخول ، وأخبرني أن كلبه قد ضاع ؛ لأنه لم يجد له أثرا في مستودع الكلاب . وقد قال له العاملون : إنه ربما يكون قد دهمته سيارة . وقد سألهم عما إذا كان من الممكن معرفة ذلك عن طريق أقسام البوليس ، فقالوا : إن أقسام البوليس لا تحتفظ بسجلات لمثل تلك الأشياء ؛ لأنها تقع كل يوم ، فقلت : إنه يستطيع أن يتبنى كلباً آخر ، ولكنه كان محقا عندما قال : إنه قد تعود على ذلك الكلب بالذات .

كنت أجلس القرفصاء فوق سرىري ، وكان سالامانو جالسا في مواجهتي أمام الطاولة ويداه فوق ركبته ، وكان يتمتم ببعض الجمل الناقصة من تحت شاربه المائل للاصفرار . لقد كان يضايقني بعض الشيء، ولكن لم يكن لدي ما أفعله ولم أكن أريد النوم . وأردت أن أقول شيئا ، فسألته عن كلبه ، فقال : إنه كان قد تبناه على إثر موت زوجته ، وقال : إنه في صباه كان قد حاول أن يصبح ممثلا مسرحيا ، وإنه فعل ذلك مع وحدته أثناء الخدمة العسكرية ، وإنه في نهاية الأمر قد التحق بالسكك الحديدية ، وإنه غير نادم على ذلك ؛ لأنه يتقاضى الآن معاشا صغيرا من جراء ذلك ، وإنه لم يكن سعيدا مع زوجته وإن كان قد استطاع أن يتعايش معها . وعندما ماتت أحس أنه وحيد ، فطلب إلى أحد أصدقائه كلبا ، فأعطاه ذلك الكلب ، وكان في ذلك الوقت. صغيرا جدا ، حتى إنه كان يطعمه في بادئ الأمر بواسطة البزازة ،

ولكن نظرا لأن حياة الكلاب أقصر من حياة البشر ، فقد انتهى بها الأمر إلى الشيخوخة معا . «لقد كانت له صفات سيئة ، ومن وقت لآخر كنا نتشاجر ، ولكنه كان – رغم ذلك – كلبا جيدا » . فقلت :| ويبدو أنه كان من سلالة ممتازة ، فبدا على سالا مانو السرور ، وأضاف :

رغم أنك لم تره قبل مرضه ، لقد كان شعره من أجمل ما يكون الشعر ! » ومنذ أن أصابه ذلك المرض الجلدي فإن سالامانو كان يدلكه يوميا في المساء وفي الصباح، ولكن ذلك لم يجد نفعا ؛ لأن مرضه الحقيقي – كما يقول – كان هو الشيخوخة ، والشيخوخة ليس لها من علاج .

عند ذلك الحد تثاءبت ، فقال العجوز : إنه سيرحل ، فقلت : إنه يمكنه أن يجلس ، وإنني أشعر بالضيق لما أصاب كلبه ، فشكرني ، ثم قال : إن أمي أيضا كانت تحب كلبه كثيرا . وقد لاحظت أنه عندما تحدث عنها كان قد قال : « أمك المسكينة » ثم ألمح إلى أنني لابد أن أكون تعيسا جدا منذ وفاتها ، فلم أرد ، ثم قال – وهو يبدو عليه الحرج – : إنه يعرف أن الناس في الحارة يسيئون تقدري ؛ لأنني كنت قد وضعت أمي في دار المسنين ، ولكنه – هو – يعرف أنني كنت أحبها كثيرا ، فأجبته : ولا أدري لماذا فعلت ، إنني أجهل تماما حتى تلك اللحظة أنهم يسيئون تقدري نتيجة لذلك ، وإن دار المسنين تبدو لي شيئا عاديا ، خاصة أنني لا أملك مالا يمكنني من القيام على شئون أمي ، ثم قلت : « وبالإضافة إلى ذلك فمنذ وقت طويل مضى لم يعد لدي أم شيء تقوله ، ثم إنها كانت تعاني من الوحدة . « فقال : نعم ، أما في دار المسنين فإننا على الأقل نستطيع أن نجد بعض الرفقاء .» ثم استأذن ؛ لأنه كان يريد أن ينام . لقد بدأت حياته تتغير الآن ، وهو لا يعرف تماما ما الذي سيفعله . ولأول مرة منذ أن عرفته ، مد يده ليصافحني في سرعة ، وعندها شعرت بالقشور التي تغطى جلده ، ثم ابتسم وقال قبل أن يرحل : « أرجو ألا تنبح الكلاب كثيرا تلك الليلة ؛ لأنني في كل مرة سأعتقد أن كلبي هو الذي ينبح .»

يوم الأحد ، وجدت صعوبة بالغة في أن أستيقظ ، حتى إنني لم أنجح في ذلك إلا بعد أن نادتني ماري وهزتني عدة مرات ، ولم ننتظر لتناول الطعام ؛|لأننا كنا نريد الاستحمام مبكرين، وعليه فقد كنت أحس بالجوع وببعض الآلام في الرأس ، حتى إن السيجارة التي أشعلتها كان لها طعم م ، كما أن مارى راحت تتهكم على ؛ لأن وجهي – كما تقول – كان يشبه وجوه من يمشون في جنازة ، فيما كانت – هي – قد ارتدت فستانا من القماش الأبيض وتركت شعرها ينسدل على كتفيها ، وقد قلت لها : إنها جميلة ! فراحت تضحك في سرور .

أثناء هبوطنا ، طرقنا باب ريمون فقال : إنه سيهبط . وفي الشارع ، كانت الشمس تسطع بقوة وتضرب الوجوه ، وربما كان ذلك لأنني كنت متعبا أو لأننا لم نكن قد فتحنا النوافذ . راحت مارى تقفز في سرور وتقول : إن الجو جميل ، فشعرت بشيء من التحسن وبشيء من الجوع ، وقد قلت لها ذلك ، فأرتني حقيبتها الجلدية ، ولم يكن بها سوى المنشفة ولباسي

الاستحمام ؛ ولذا فلم يكن أمامي سوى الانتظار ، ثم سمعنا ريمون يغلق بابه . كان يرتدي بنطلونا أزرق وقميصا أبيض قصير الأكمام ، | وكذلك قبعة من القش أثارت ضحك مارى . كما أن ذراعيه كانتا بيضاوين تحت الشعر الأسود ، الأمر الذي أثار اشمئزازي بعض الشيء . كان ريمون يصفر ، وكان يبدو مسرورا وقد قال لي : « أهلا يا صاح » وقال لماري « أهلا بالأمس كنا قد ذهبنا إلى قسم البوليس وأدليت بشهادتي، وقلت : إن الفتاة قد « خدعت » ريمون . وقد أفرجوا عنه بعد أن حذروه ، تحدثنا قليلا مع ريمون أمام الباب ، ثم قررنا أن نأخذ الأتوبيس . لم يكن الشاطئ بعيدا ، ولكننا أردنا أن نصل إلى هناك بسرعة ؛ فقد كان ريمون يعتقد أن صديقه سيكون مسرورا إذا نحن وصلنا مبكرين . وما إن بدأنا الرحيل ، حتى فاجأني ريمون بإشارة طالبا مني أن أنظر إلى الناحية المقابلة . فنظرت، ورأيت مجموعة من العرب أمام حانوت التبغ . كانوا ينظرون إلينا في صمت ، كما لوكنا قطعا من الحجارة أو الأشجار الميتة . وقال ريمون : إن الشخص الثاني من اليسار هو غريمه ، ثم بدا عليه الانشغال وقال : إن الخلاف بينهما يعتبر الآن شيئا منتهيا . ولم تكن مارى تفهم ما يدور من حولها فسألتنا عن ذلك ، فقلت لها : إن هؤلاء العرب يضمرون شرا لريمون . فأرادت أن نرحل في التو واللحظة ، فنهض ريمون وقال وهو يضحك : إذن يجب أن نرحل بسرعة .

توجهنا إلى ناجية موقف الأتوبيس ، وقال لي ريمون : إن العرب لا يتعقبوننا ، فنظرت خلفي ، كانوا في نفس مكانهم ينظرون إلى الموقع الذي كنا قد غادرناه دون أدنى اهتمام . ركبنا الأتوبيس . ولم يتوقف ريمون – الذي بدا عليه الارتياح – عن مداعبة مارى ، رغم أنها لم تكن تجيبه إلا بضحكة قصيرة من وقت لآخر .

نزلنا من الأتوبيس في إحدى الضواحي ، ولم يكن الشاطئ بعيدا . ولكن كان علينا أن نعبر هضبة صغيرة تطل على البحر وتهبط نحو الشاطئ. كانت تلك الهضبة مغطاة بالحجارة التي يميل لونها إلى الاصفرار، وبأعشاب السيراسي البيضاء تحت زرقة السماء الملتهبة ، كانت مارى تمرح وتضرب زهور الأعشاب بحقيبتها الجلدية فيها كنا نمشي بين صفين من الفيلات الصغيرة المحاطة بحواجز خضراء أو بيضاء . بعض تلك الفيلات كانت تختبئ تحت الأشجار ، والبعض الآخر تقف عارية وسط الصخور . وقبل أن نصل إلى حافة الهضبة كنا نرى مياه البحر الساكنة الرائعة وهي تحتضن الشاطئ الهادي الضخم .

ثم سمعنا ضوضاء خفيفة تصل إلينا عبر الهواء الراكد ، ورأينا – عن بعد – قاربا صغيرا يتقدم ببطء فوق صفحة المياه الناصعة . وكانت مارى قد جمعت بعض زهور السوسن من بين الصخور ، وبينما كنا فوق الهضبة الهابطة تجاه البحر رأينا أن هناك بالفعل بعض المستحمين .

كان صديق ريمون يسكن عشا صغيرا من الخشب في طرف الشاطىء.

وكان ذلك العش يستند من الخلف إلى الصخور ، فيما كانت المياه تداعب الأعمدة الخشبية التي كانت تحمله من الأمام . قدمنا ريمون إلى صديقه ، وكان يسمى ماسو ، كان طويل القامة وضخم المنكبين ، وكانت زوجته صغيرة وممتلئة وطيبة ، وتتحدث بلكنة باريسية . وقد قال لنا الرجل أن نعتبر أنفسنا في بيوتنا ، وأن نتصرف في حرية ، وأنه سوف يقلى لنا بعض السمك الذي كان قد اصطاده في الصباح . وقد قلت له : إنني أجد بيته جميلا ، فقال : إنه يمضي فيه أيام السبت والأحد وكل أيام الإجازات ، وأضاف :| «أنه وزوجته بحبون ذلك . » في تلك الأثناء ، كانت زوجته تضحك مع مارى .. وللمرة الأولى – تقريبا – فكرت في أني قد أتزوج .

كان ماسو يريد الاستحمام ، ولكن زوجته و رىمون لا يريدان ؛ ولذا فقد ذهبنا نحن الثلاثة فقط ، وما إن وصلنا حتى ألقت مارى بنفسها داخل المياه، في حين انتظرنا – ماسو وأنا – لبعض الوقت . كان ماسو يتكلم ببطء، وقد لاحظت أنه عادة ما يكمل كل ما ىنطق به بعبارة « وسأقول بالإضافة إلى ذلك ، حتى ولو كان ما سيقوله لا يضيف – في الواقع – شيئا إلى ما قد قاله بالفعل . وعن ماري فقد أسر لي : « إنها مدهشة – وسأقول بالإضافة إلى ذلك – رائعة . » ثم ما لبثت أن نسيت تلك العادة ؛ لأنني كنت مشغولا بالاستمتاع بالشمس . وكانت الرمال قد بدأت تسخن تحت الأقدام ، فأجلت رغبتي في نزول المياه للاستمتاع بذلك الدفء ، ولكنني انتهيت بعد فترة بأن قلت لما سو : « هيا بنا » ثم ألقيت بنفسي في المياه ، فيها راح هو يتقدم ببطء ثم ألقى بنفسه عندما غطته المياه . وقد كان عومه بطيئا | وسيئا ، فتركته كى ألحق بهارى . كانت المياه باردة فكنت مسرورا لمجرد العوم. ورحنا نسبح – ماري وأنا – بعيدا في توافق وانسجام .

في عرض البحر ، استلقينا على ظهورنا ، وفوق وجهي راحت الشمس تزيح طبقة الماء التي كانت تسيل إلى فمي ، ثم رأينا ماسو وهو يتجه إلى الشاطئ ليرتمي في الشمس ، وكان يبدو ضخما من بعيد ، ثم أرادت مارى أن نسبح معا ، فجعلت نفسي خلفها حتى أتعلق بوسطها ، وراحت هي تتقدم بضربات الذراعين، فيما كنت أساعدها بقدمي ، في الوقت الذي راحت ضوضاء المياه المضروبة تتبعنا عبر ضوء الصباح ، حتى أحسست بالتعب . عندها تركت ماري ورحت أسبح في طريق العودة بضربات منتظمة وتنفس عميق . وعلى الشاطئ ارتميت إلى جوار ماسو ، ووضعت وجهي على الرمال وأنا أقول : « إن المياه جميلة » ! ، وكان له أيضا نفس الرأي . بعد قليل ، جاءت مارى فاستدرت أنظر إليها وهي تتقدم ملفوفة بالمياه المالحة وتمسك شعرها إلى الوراء ، ثم ألقت بنفسها إلى جواري وجسدها بلاصق جسدي ، حتى إنني من جراء حرارة جسدها وحرارة الشمس شعرت بميل إلى النعاس .

وبعد قليل ، هزتني مارى قائلة : إن ماسو قد صعد إلى بيته ، وإنه يجب أن نلحق به لتناول الغداء ، فقمت على الفور ؛ لأنني كنت جائعا ، ولكن مارى قالت تنبهني : إنني لم أقبلها

منذ الصباح ، وقد كان ذلك حقيقيا ، كما أنني كنت أرغب في ذلك ، ولكن يبدو أنني قد نسيت ، فقالت : هيا بنا داخل المياه » ، فعدونا معا إلى أن ارمينا معا داخل الأمواج من الشاطئ.

عندما رجعنا إلى العش كان ماسو ينادينا ، فقلت : إنني جائع بالفعل، فيما قال هو لزوجته : إن صفاتي قد أعجبته . كان الخبز جيدا ، فالتهمت نصيبي كله من السمك . وكان هناك بعد ذلك اللحم والبطاطس المحمرة .

كنا نأكل دون أن نتكلم . وكان ماسو يشرب الكثير من النبيذ ، وكان يقدمه إلى دون توقف . عندما جاءت القهوة ، كانت رأسي قد ثقلت قليلا ، وكنت أدخن بشراهة ، ثم رحلنا – ماسو وريمون وأنا – نتناقش في إمكانية قضاء شهر أغسطس معا على الشاطئ ، على أن نقتسم التكاليف . وفجأة قالت مارى : « أتدرون ما الساعة الآن ؟ إنها الحادية عشرة والنصف .»| وقد أدهشنا ذلك ، غير أن ماسو قال : إننا قد تناولنا الغداء مبكرا ، وإن ذلك أمر طبىعي ؛ لأن وقت الغداء هو الوقت الذي نحس فيه بالجوع . ولست أدري لماذا كان ذلك سببا في إضحاك ماري وإن كنت أعتقد أن ذلك مرده إلى أنني قد شربت الكثير من النبيذ ، ثم سألني ماسو إن كنت أرغب في النزهة معه على الشاطئ وأضاف : « زوجتي تنام دائما بعد الظهر، ولكنني لا أحب ذلك ، ولابد أن أمشي . ولقد قلت لها مرارا : إن ذلك أفضل للصحة ، ولكنها – على أية حال – تفعل ما تريده ، وذلك هو حقها. » فقالت مارى : إنها ستبقى لتساعد السيدة ماسو في غسيل الأواني والأطباق ؛ فقالت الباريسية القصيرة : إن على الرجال الانصراف إلى الخارج ، وعليه فقد هبطنا نحن الثلاثة .

كانت الشمس تتوسط السماء وتتعامد على الرمال ، وكان لمعانها فوق مياه البحر لا يحتمل . لم يكن هناك أحد على الشاطئ . وفي البيوت المحيطة بالهضبة كنا نسمع ضوضاء الأطباق والملاعق ؛ فيها كنا نتنفس بصعوبة وسط الحرارة المنبعثة من الأرض والصخور ، ثم بدا ماسو وريمون يتحدثان عن بعض الناس ممن لا أعرفهم ، ففهمت أنهما يعرف أحدهما الآخر منذ أمد طويل ، وأنهما كانا يعيشان معا في فترة من الفترات ، ثم اتجهنا ناحية المياه ورحنا نسير بمحاذاة البحر . وفي بعض الأحيان كانت موجة أطول من زميلاتها تأتي لتبل أحذيتنا القماشية ، ولم أكن أفكر في شيء ؛ لأنني كنت . شبه نائم بفعل تلك الشمس فوق رأسي العارية .

في تلك اللحظة قال ريمون لماسو شيئا لم أسمعه جيدا ، وفي نفس اللحظة لاحظت أن هناك على الشاطئ – بعيدا عنا – اثنين من العرب يرتديان ثيابا زرقاء ويأتيان في اتجاهنا ، فنظرت إلى ريمون الذي قال لي « إنه هو . » رحنا نواصل السير ، فيما سأل ماسو كيف استطاعا أن يتبعانا حتى هنا . ففكرت في أنها لابد قد لاحظا أننا قد ركبنا الأتوبيس ومعنا شنطة البحر ، ولكنني لم أقل شيئا .

راح العربيان يقتربان ببطء ، ولم نغير نحن من سرعتنا ، ثم قال ريمون : « إذا حدث شجار فعليك بالثاني يا ماسو . فيما سأتكفل أنا بغريمي. وأنت يا ميرسو ، إذا وصل شخص آخر فهو لك ، فقلت « حسنا » ، فيها وضع ماسو يديه في جيوبه . كانت حرارة الرمال قد اشتدت ، فيما كنا نتقدم بخطوات متساوية ناحية العربيين ، وراحت المسافة بيننا تتناقص تدريجا . وعندما صرنا على قيد خطوات منها توقفا ، فخففنا – ماسو وأنا – من سرعتنا ، فيما اتجه ريمون مباشرة نحو غريمه ، ولم أسمع بالضبط ما قاله له، ولكن الآخر بدا وكأنه يريد أن يضربه برأسه ، فعاجله ريمون بالضرب ثم نادا ماسو فتوجه الأخير ناحية العربي الذي كان من نصيبه وضربه ضربتين بكل قوته وثقله ، فسقط في المياه ووجهه إلى أسفل ، وفقاعات الهواء تتكون وتتكسر حول رأسه . في ذلك الوقت كان ريمون أيضا قد ضرب الآخر حتي تشبع وجهه بالدماء ، ثم استدار ناحيتي وقال : «سوف ترى الآن ما سأفعل به . » فصرخت أحذره : « انتبه إن معه سكينا ! » ولكن ذراع ووجه ريمون كانا بالفعل قد جرحا ، قفز ماسو إلى الأمام ، ولكن العربي الثاني كان قد نهض ووقف خلف زميله المسلح ، فلم نعد نجرؤ على الحركة ، فيها راحا يتقهقران ببطء وهما ينظران إلينا ويجبراننا على التزام السكون بفعل السكين ، وعندما صارا على مسافة مناسبة انطلقا هاربين بسرعة ، فيما كنا نقف دون حراك تحت الشمس وفيها كان ريمون يضغط ذراعه الملوثة بالدماء .

قال ماسو : إن هناك طبيبا يعيش فوق الهضبة ويأتي يوم الأحد ، فأراد ريمون أن يذهب إليه في الحال ، ولكنه كلما تكلم كانت الدماء تخرج من فمه على هيئه فقاعات ، فأخذناه وذهبنا إلى العش بأسرع ما نستطيع ، وهناك قال ريمون : إن جراحه سطحية وإن بإمكانه أن ينتقل إلى الطبيب ، وذهب مع ماسو ، وبقيت أنا لأشرح للنسوة ما حدث ، فراحت السيدة ماسو تبكي. فيها شحب وجه مارى ، وكنت أنا منزعجة من مهمة الشرح هذه ، وانتهى الأمر إلى أن توقفت ورحت أدخن وأنظر إلى البحر .

في حوالي الساعة الواحدة النصف عاد ريمون برفقه ماسو . كانت ذراعه ملفوفة وعلى أحد جانبي الفم يوجد رباط لاصق . كان الطبيب قد قال : إنها جروح بسيطة ، ولكن ريمون كان يبدو مهموما ، وراح ماسو يحاول أن يضحكه دون جدوى ، ثم قال : إنه سوف يهبط إلى الشاطئ ، فسألته إلى أين ؟ فيما قال ماسو : إننا سنرافقه ، وعندها هاج واغتاظ وراح يسبنا . فقال ماسو : إنه يجب ألا نعارضه ، ولكنني رحت أتبعه رغم ذلك .

مشينا وقتا طويلا على الشاطئ . كانت الشمس قد صارت لا تطاق ، وكأنها تتناثر قطعا قطعا فوق الرمال والبحر . أحسست أن ريمون كان يعرف إلى أين هو ذاهب ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا . في نهاية الشاطئ وصلنا إلى نبع صغير يتدفق بين الرمال ، خلف صخرة كبيرة . وهناك وجدنا العربيين . كانا يرقدان في هدوء بل ويبدو عليها السعادة ، في ملابسها الزرقاء الملوثة ، ولم يغير وصولنا المفاجئ من الأمر ؛ فذلك الذي ضرب ريمون كان ينظر دون أن

يقول شيئا ، فيما كان الآخر ينفخ في قصبة قصيرة ويردد دون توقف النغمات الثلاثة الوحيدة التي كان يحصل عليها من التله الموسيقية .

في أثناء ذلك الوقت ، لم يكن هناك سوى الشمس والصمت ، مع صوت النبع والنغمات الثلاثة . ثم وضع ريمون يده في جيبه وكان به مسدس ، ولكن الآخر لم يتحرك ، ودون أن يحول ريمون عينيه عن غريمه راح يسألني : «هل أقتله ؟ » فأدركت أنني لو قلت : لا ، فإنه سوف يتهور ويعاند ويسارع بإطلاق النار ؛ ولذلك فقد اقتصرت على قول : « إنه لم يتحرش بك ، وسيكون ذلك شيئا بغيضا إن أطلقت النار دون ما سبب .» مازلنا لانسمع سوى صوت مياه النبع وصوت الناي وسط الصمت والحرارة ، ثم قال ريمون : «سوف أسبه ، وعندما يرد سوف أقتله » فقلت:| هو ذاك ، ولكنه إن لم يخرج سكينه ، فلن تستطيع أن تضربه ، فهاج ريمون قليلا . كان الآخر لايزال يعزف على آلته وهما يراقبان تحركات ريمون ، فقلت لريمون : لا، إن عليك أن تنازله باليد – رجة لرجل – فأعطني سلاحك ، وإذا تدخل الآخر أو حاول أن يستخدم سكينه فسوف أطلق عليه النار .

عندما ناولني ريمون المسدس ، راح يلمع تحت الشمس ، ثم وقفنا دون حراك ، كما لو كان شيء قد توقف من حولنا . كنا ننظر أحدنا إلى الآخر ، ولا شيء سوى ذلك في تلك البقعة ما بين البحر والرمل والشمس والصمت المزدوج الذي حل بمياه النبع والناي . وبينما كنت أفكر في إطلاق النار من عدمه ، إذا بالعربيين ينسحبان إلى ما وراء الصخرة ، وعندها عدنا ، فيها بدا على ريمون الارتياح وراح يتحدث عن أتوبيس العودة .

صحبته حتى العشة ، وبينا راح يصعد السلم الخشبي ، توقفت – أنا – عند أول درجاته ، كان رأسي يدق بفعل الشمس ، حتى إنني كنت أشعر بالإحباط المسبق أمام المجهود اللازم لصعود تلك السلالم ثم الحديث مع النسوة . ولكن الحرارة كانت من الشدة بحيث يستحيل معها أن أظل واقفا تحت تلك الأشعة التي تتساقط من السماء لتعمى الأنصار ، فإما أن أبقى هنا أو أرحل ، كان كل ذلك يتساوى لدى . بعد لحظات استدرت ناحية الشاطئ ، ورحت أسير . نفس اللهيب الأحمر فوق الرمال ، والبحر هو الآخر ، توقفت واختنقت أمواجه القصيرة .

رحت أسير في بطء وعلى غير هدى تجاه الصخور . وكنت أحس وكأن جبهتي قد تورمت تحت وهج الشمس . كانت كل تلك الحرارة تثقلني وتعيق تقدمي ، وكلما أحسست بذلك اللهيب الحار يلفح وجهي ، كنت أضغط أسناني بعضها فوق بعض ، وأضغط يدي بقوة داخل جيوب بنطلوني ، لقد كنت أمارس ضغطا هائلا على كل جسدي للانتصار على تلك الشمس وعلى تلك السكرة التي كانت تغمرني ، كان فكاي يتقلصان، وكانت أسناني تنقبض مع كل حزمة من الضوء تنعكس فوق الرمال أو فوق إحدى القواقع أو فوق قطعة من الزجاج ، لقد مشيت طويلا على تلك الحال .

ومن بعيد رأيت كتلة الحجارة القاتمة ، محاطة بهالة وهاجة من ضوء الشمس ورذاذ البحر ، ففكرت في نبع المياه الرطبة بين تلك الحجارة ، لقد كنت تواقا لسياع الحرير الهادئ لتلك المياه ، وتواقا للهروب من تلك الشمس ، ومن ذلك العناء ، ومن نحيب النسوة ، وتواقا أكثر من كل ذلك للوصول إلى الظل والراحة ، ولكنني عندما اقتربت من الصخرة وجدت غريم ريمون يرقد هناك .

كان يرقد وحيدا ، ظهره على الأرض ويداه متشابكتان تحت رأسه الذي كان في ظل الصخرة ، فيما كان جسده كله تحت الشمس . كان الأمر كله مفاجأة لي ؛ لأن ذلك الأمر كله كان – من وجهه نظرى – قد انتهى ، حتى إنني قد جئت إلى هنا دون أن أفكر فيه .

وما إن رآني ، حتى نهض ووضع يده في جيبه – وفي حركه تلقائية – قمت أنا بالضغط على مسدس ريمون الذي كان في جيبى ، فراح هو يتراجع للخلف ، ويده لاتزال في جيبه . لقد كنت بعيدا عنه بها لا يقل عن عشرة أمتار ، ولكنني كنت أتكهن بنظراته بين جفونه نصف المغلقة ، رغم أن هيكله كان يتراقص أمام عيني في ذلك الهواء الملتهب ، فيما كانت ضوضاء الأمواج المتكاسلة تصل إلى سمعي من بعيد ، وكانت الشمس هي نفس شمس الظهيرة الحامية ، والضوء هو نفس الضوء فوق الرمال . لقد انقضت ساعتان ولكن النهار لم يتقدم ، انقضت ساعتان منذ أن ألقى النهار مرساته في ذلك المحيط من المعدن المنصهر . وعند الأفق لم يكن سوى بخار يمر ، وكانت هناك بقعة سوداء على مرمى البصر ، إنه ذلك العربي الذي لم أكن قد توقفت عن النظر إليه .

فكرت في أنه ليس على إلا أن أستدير وأمشي وسوف ينتهى الأمر . ولكن شاطئا طويلا بأكمله كان يرتعد بفعل الشمس ويضغط على من الخلف ، فتقدمت قليلا ناحية نبع المياه ، فلم يتحرك العربي ، إنه لايزال بعيدا ، وقد خيل إلى أنه يضحك ، وربما كان ذلك بفعل الظلال الساقطة فوق وجهه ، فرحت انتظر . كانت الشمس تحرق وجهى وقطرات العرق تتجمع بين حاجب . إنها نفس شمس اليوم الذي دفنت فيه أمي والذي كانت فيه جبهتي تؤلمني ، وكانت كل العروق من تحتها تضرب بعنف . وبسبب تلك الحرارة التي لم أعد أحتملها ، تقدمت في حركة خاطفة إلى الأمام، لقد كان ذلك عملا أحمق ، فقد كنت أعرف أنني لن أتخلص من الشمس بتلك الحركة ، ولكنني كنت بالفعل قد تقدمت خطوة إلى الأمام، خطوة واحدة . وفي هذه المرة ، ودون أن ينهض ، أخرج العربي سكينه ، وأمسك بها تحت الشمس ، فكان الضوء ينعكس فوقها وكأنه نصل طويل ملتهب قد امتد ليصيب جبهتي . في تلك اللحظة ، راح العرق المتجمع بين حاجبي يسيل فوق جفوني ويغطيها بحجاب دافئ سميك ، فلم أعد أرى شيئا خلف تلك الستارة من الدموع المالحة ، لم أعد أشعر إلا بضربات الشمس فوق جبهتي والبريق الخاطف المنبعث من السكين الممدود في مواجهتي ، ذلك البريق الذي كان يحرق رموشي ويخترق عيني المتعبتين . في تلك اللحظة بالضبط ، حدث ما حدث ، فقد أرسل البحر ريحا

ثقيلة ملتهبة ، وخيل إلى أن السماء قد انشقت عن آخرها وراحت تمطر نارا ، فتقلصت كل جوارحي ، وتشبثت يدي بالمسدس ، وها هو ذا الزناد يلين تحت أصابعي، وها هي ذي الضوضاء الجافة المرتفعة التي من خلالها بدا كل شيء . نفضت العرق والشمس ، وعندها أدركت أنني كنت بالفعل قد حطمت هدوء ذلك اليوم، وكسرت صمت ذلك الشاطىء الذي كنت سعيدا فوقه .

عندها أطلقت طلقات أخرى أربعة على جسد هامد ، كانت الرصاصات تختفي داخله إلى الأبد . لقد كانت كطرقات قصيرة أربعة ، طرقها على باب الحزن والأسى .

الجزء الثالث

إنه دائما شيء مثير ، أن يسمع الإنسان من يتحدث عنه ، حتى ولو كان جالسا في مقعد المتهم : فأثناء مرافعات النائب العام والمحامي أستطيع أن أقول : إنهم قد تحدثوا عنى كثيرا ، بل ربما كان حديثهم عني قد فاق حديثهم عن جريمتي ، ولكن هل كانت كل تلك المرافعات بالفعل مختلفة عن بعضها البعض ؟ لقد كان المحامي برفع ذراعيه ويقول : إنني مذنب ولكن بعذر ، فيما كان النائب العام يمد يده ويشجب تلك الجريمة عديمة الأعذار . ولقد كان هناك شيء يزعجني : فبالرغم من همومي ، كنت في بعض الأحيان أحاول التدخل ، ولكن المحامي كان حينئذ يقول : «اصمت، فإن ذلك أفضل لك .» وبمعنى آخر فإنه قد بدا وكأنهم يعالجون تلك القضية بدونى . كل شيء كان يجري دون تدخل من جانبي ، ومصيري كان يتقرر دون أن يأخذوا رأيي . ومن وقت لآخر ، كانت تحضرني الرغبة في مقاطعة كل الحضور لكي أقول : « ما هذا ؟ من هو المتهم هنا ؟ إن المتهم شخص مهم في القضية ، ثم إن لدى شيئا أريد أن أقوله . » ولكن بعد قليل من التفكير، كنت أتوصل إلى أنه لا يوجد لدي ما أقوله ، كما أنني يجب أن أعترف أن المزية التي قد يجدها البعض في تلك المرافعات – هي أنها تملأ أوقات الفراغ – حتى هذه المزية لا تستمر وقتا طويلا ؛ فمرافعات النائب العام – مثلا – قد أصابتني بالملل السريع ، فلم يكن بها سوى بعض الأجزاء أو الحركات أو الجمل القوية المنظومة التي أثارت اهتمامي .

وكانت نظريته – إذا كنت قد فهمته جيدا – تقول على : إنني قد دبرت لجريمتي . وقد حاول – جاهدا – أن يثبت ذلك ، كما كان قد قال بنفسه : « سوف أقدم لكم الدليل أيها السادة ، بداية بفضل الوقائع الدامغة الجلية ، ثم بعد ذلك بفضل الضوء الخافت الذي سيقدمه التحليل النفسي لتلك الروح المجرمة . » ثم لخص الوقائع منذ موت أمي ، وذكر بعدم تأثرى يوم دفنها ، وجهلي بحقيقة سنها ، واستحمامي مع فتاة في اليوم التالي ، وذهابنا إلى السينما ، وفيلم فرنانديل ، وأخيرا عودتي مع ماري إلى البيت . ولقد بذلت وقتا – حينئذ – حتى فهمته ؛ لأنه كان يقول عشيقته . وبالنسبة لي فإنها لم تكن سوى مارى فقط . وبعد ذلك عرج على قصة ريمون . ولقد وجدت أن رؤيته للأحداث لم يكن ينقصها الوضوح ، بل إن ما يقوله كان معقولا : لقد كتبت الخطاب مع ريمون لاستدراج عشيقته وتعريضها للمعاملة المهينة من جانب رجل « مشبوه الأخلاق . ولقد تحرشت بأعداء ريمون على الشاطئ ، مما أدى إلى إصابة الأخير بجراح . فطلبت إليه مسدسه ، وعدت وحيدا لاستخدامه ، ولقد قتلت العربي كما دبرت ، وانتظرت حتى تأكدت من إن العملية قد انتهت ، فأطلقت أربع طلقات أخرى في هدوء وثقة وبعد تفكير . ثم قال : « وهكذا ، أيها السادة، لقد ترسمت أمامكم مجرى الأحداث التي أدت بهذا الرجل إلى ارتكاب ذلك القتل المتعمد ، وأنا أكرر ذلك ، إنها ليست جريمة قتل عادية

نتجت عن عمل غير محسوب أدت إليه الظروف الطارئة . إن هذا الرجل ، أيها السادة ، هذا الرجل ذكي . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ فهو يعرف كيف يجيب ، ويعرف معنى الكلمات ؛ ولا أستطيع أن أقول : إنه قد فعل فعلته دون أن يدرى مافعله .»

لقد كنت أستمع ، وعرفت أنهم يعدونني ذكيا ، ولكنني لم أفهم كيف يمكن أن تتحول مميزات الرجل البريء إلى اتهامات دامغة ضد الرجل المذنب. ولقد كان ذلك – على ما أعتقد – هو ماصدمني وجعلني لا أواصل الاستماع إليه ، حتى سمعته يقول : وهل عبر – رغم ذلك – عن ندمه ؟ إطلاقا أيها السادة . لم يبد على ذلك الرجل – ولو مرة واحدة – أنه نادم على جريمته البشعة ، ثم استدار ناحيتي وأشار إلى بإصبعه وهو مستمر في مهاجمتى دون أن أفهم السبب في الواقع . ولاريب في أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاعتراف بأنه كان على حق ، فلم أكن قد اعتذرت كثيرا عما فعلته ، ولكن ما كان يدهشني هو كل ذلك التحامل من جانبه . لقد كنت أريد أن أشرح له في لطف وحنان ، أنني في الواقع لم أستطع في حياتي كلها أن أعتذر عن شيء فعلته . لقد كنت دائما مشغولا ومهموما بها سيحدث ، باليوم أو بالغد، ولكنني – بالطبع – وفي الحالة التي وضعوني فيها ، لم أكن أستطيع أن أتحدث إلى أي شخص بتلك الطريقة . لم يكن لدي الحق في أن أبدو لطيفا طيبا أو حتى أن أظهر الرغبة في ذلك .

ثم حاولت أن أستمع مجددا ؛ لأن النائب العام كان قد راح يتحدث عن روحي فقال : إنه قد حاول أن يتعرف عليها ، ولكنه لم يجد شيئا . وإنني – في حقيقة الأمر – لا أمتلك روحا ، وليس لدي من الإنسانية شيء ، ولا أعرف واحدا فقط من المبادئ الأخلاقية التي توجد في قلوب الرجال ، ثم أضاف: « ولاشك في أننا لا نستطيع أن نعاتبه على ذلك ؛ فالذي لا يستطيع أن يمتلكه – هو – لا يمكننا – نحن – أن نعاتبه على تقصه ؛ ولكن هنا – أمام تلك المحكمة – فإن صفة التسامح يجب أن تفسح مكانها ، لما هو أسمى من ذلك وأهم ، ألا وهي العدالة ، خاصة إذا كان فراغ القلب – كما نجده عند ذلك الرجل – قد تحول إلى هاوية قد يسقط فيها المجتمع بأكمله. » ثم تحول إلى الحديث عن تصرفات تجاه أمي ، فكرر ما كان قد قاله أثناء المناقشة ، ولكنه أطال أكثر مما كان قد فعله عندما كان يتحدث عن جريمتي ، ثم توقف ، وبعد فترة صمت عاد إلى حديثه بصوت مؤثر : إن نفس تلك المحكمة – يا سادة – سوف تقوم غدا بالفصل في أبشع الجرائم على الإطلاق : جريمة ابن قتل أباه ، تلك الجريمة النكراء التي لا يستطيع حتي الخيال أن يدرك مداها . » وأضاف أنه يتمنى أن تعاقب العدالة هؤلاء دون رحمة ، وأنه يستطيع أن يقول : إن الفزع الذي ولدته لديه تلك الجريمة يمكن مقارنته بما شعر تجاه قسوتى ، فطبقا لما قاله ، فإن الرجل الذي يقتل أمه نفسيا يكون قد اعتدى على المجتمع البشري ووضع نفسه في خندق واحد مع ذلك الذي اعتدى بالقتل على من جاء به إلى تلك الحياة ؛ ففي الحالتين، فإن الاعتداء الأول يمهد الطريق أمام الاعتداء الثاني ، ويعلن عن قدومه ، بل ويبرره ، ثم أضاف وهو يرفع صوته : « إنني أشعر – أيها السادة – أنكم لن تجدوا فيما أقوله نوعا من المبالغة أو الجرأة ، إذا ما قلت : | إن ذلك الرجل الجالس أمامكم يعد مذنبا

بجريمة قتل تماثل تلك التي ستفصل فيها المحكمة في الغد ، وإنه يجب معاقبته على هذا الأساس .» وهنا راح يمسح وجهه الذي كان يلمع بالعرق ثم قال – في نهاية الأمر – إن عليه واجبة مؤلمة ، ولكنه سوف يكلمه بكل قوة ، وقال : إنه لا شأن لي ، وليس لي مكان في مجتمع ، أنا في جهل بكل مبادئه الأساسية ، وإنني لا يمكن أن أعتمد على رحمة القلب الإنساني ؛ لأنني أجهل حتى التصرفات البدائية لذلك القلب الإنساني ، ثم ختم حديثه قائلا : « وبناء على ذلك، فإني أطالبكم برأس هذا الرجل ، أطالبكم برأسه وقلبى راض عن ذلك ؟

لأنه إذا كان قد حدث لي خلال سنوات خدمتي الطويلة المطالبة بأحكام الإعدام ، فإنني لم أشعر على الإطلاق بمثل ما أشعر به اليوم ، من أن ذلك الواجب الصعب محق وعادل وناصع أمام الضمير الذي يأتمر بأوامر عليا مقدسة ، وأمام ذلك الرعب الذي أشعر به حيال ذلك الوجه البشري الذي لا أجد به سوى كل ما هو قاس ووحشي .»

عندما جلس النائب العام ، أعقب ذلك لحظات طويلة من الصمت . فيها كنت – أنا – أشعر بالدوار من جراء الحرارة الشديدة والدهشة المفاجئة . فبعد أن تنحنح الرئيس قليلا ، سألني بصوت خفيض ، إن كان لدي شيء أريد أن أضيفه ، فوقفت وحيث إنه كانت عندي – بالفعل – الرغبة في الحديث، فقد قلت ما كان يدور داخلي بالصدفة من أنني لم تكن لدى النية القتل العربي ، فقال الرئيس : إن ذلك يعتبر تأكيدا ينقصه الدليل ، وإنه حتى تلك اللحظة لا يستطيع أن يفهم طريقتي في الدفاع ، وإنه سيكون سعيدا – قبل أن يشرع في سماع المحامي – أن أوضح له الدوافع التي كانت وراء ذلك العمل ، فقلت بسرعة ، والكلمات تخرج متشابكة وأنا أشعر بمدى سخف ما أقول : إن ذلك قد حدث بسبب الشمس . على إثر ذلك حدث ضحك بالقاعة ، وهز المحامي كتفيه ، وبعد ذلك بدأ يتكلم. فقال : إن الوقت قد تأخر ، وإنه سيتحدث لساعات طويلة ، و إنه يطلب تأجيل الجلسة إلى ما بعد الظهر ، ووافقت المحكمة على طلبه .

بعد الظهر ، كانت المراوح الكهربائية لازالت تحاول تحريك هواء القاعة الثقيل ، فيما كانت مراوح اليد الملونة تهتز بين أيدي المحلفين ، في نفس الاتجاه ، وقد تحدث المحامي طويلا حتى إنه قد بدا لي أن مرافعاته لن تنتهى على الإطلاق . ومع ذلك ، ففي لحظة معينة استمعت إليه ؛ لأنه كان يقول عن نفسه : «صحيح أنني قتلت . » وراح يكمل الحديث وهو يقول « أنا » في كل مرة كان يتحدث فيها عني . ولقد كنت مندهشا جدا ، فانحنيت ناحية رجل البوليس وسألته عن ذلك ، فأمرني أن أصمت ، وبعد لحظة أضاف : كل المحامين يفعلون ذلك . «أما أنا ، فقد اعتقدت أن ذلك كان لإبعادي أكثر فأكثر عن القضية ، أي لتحويل إلى صفر كبير ، أو بمعنى أدق لكي يحل هو محلى أنا . على كل حال ، لقد كنت – في الواقع – بعيدا جدا عما كان يحدث في تلك القاعة ، كما أن المحامي بدا لي سخيفا ؛ فقد راح بسرعة يتحدث عن الاستفزاز ، ثم عرج هو الآخر على روحي ، ولكنه بدا لي أقل مهارة من وكيل النائب العام ؛ فقد قال : « وأنا أيضا حاولت التعرف على تلك الروح ، ولكن على العكس تماما من

السيد وكيل النائب العام فإنني قد وجدت شيئا ، وأستطيع أن أقول : إنني كنت أقرأ فيه كالكتاب المفتوح ، كان قد قرأ – على حد قوله – أنني رجل أمين ، أعمل في انتظام، وفي غير ملل أو كلل ، ومخلص للمكان الذي أعمل فيه ، ومحبوب من الجميع ، ومشارك في مصائب الآخرين ، كما أنني كنت – من وجهة نظره – مثالا للابن البار الذي ساعد أمه قدر استطاعته ، وفي النهاية فإنني – طبقا لما قاله – كنت أتمنى أن تجد أمي العجوز – في دار المسنين – الراحة التي لم تكن مواردي المحدودة تسمح لي بتوفيرها لها»، ثم أضاف : «وأنا مندهش، أيها السادة ، إننا أثرنا كل تلك الضوضاء حول تلك الدار ؛ لأننا إذا أردنا دليلا على منفعة وعظمة تلك المؤسسات ، فإنه يجب ألا ننسى أن الدولة نفسها هي التي تمولها . » ولكنه لم يتحدث عن يوم الدفن . ولكن نظرا لكل تلك الجمل الطويلة ، وكل تلك الأيام والساعات التي لا تنتهي والتي تحدثوا فيها عن روحي ، أحسست وكأن كل شيء قد صار عدىم اللون كالماء ، مما كان يصيبني بالدوار .

في النهاية ، فإنني أذكر والمحامي مستمر في دفاعه – أن صوت طبلة بائع الجيلاتي في الخارج كانت تصل إلى سمعي عبر كل تلك الصالات والقاعات ، كان رأسي ممتلئا بالذكريات ، ذكريات تلك الحياة التي لم تعد حىاتي ، والتي كنت أجد فيها أفراحي الكبيرة منها والصغيرة : روائح الصيف الحارة التي أحببتها ، السماء في الليل ، ضحكات مارى وفساتينها. عند ذلك أحسست أن ما أفعله من أشياء عديمة النفع في تلك القاعة يصيبني بالإحباط .، فشعرت بالرغبة في البكاء ، ورحت أتمنى أن يسرعوا في الانتهاء ، وأن أعود إلى زنزانتي لأجد النوم . بعد ذلك بقليل سمعت المحامي وهو يصيح قائلا : إن المحلفين لن يرسلوا إلى الموت ذلك العامل المجد الأمين الذي تسببت دقيقة واحدة من الغشاوة في ضياعه ، ثم طلب اعتبار أن هناك ظروفا يجب أن تؤخذ في الحسبان لتلك الجريمة التي سأتحمل إلى الأبد عذابها الأكيد، ألا وهو تأنيب الضمير الأبدي .

بعد ذلك رفعت الجلسة ، في حين تهالك المحامي فوق مقعده ، وأقبل عليه زملاؤه يهنئونه ويشدون على يده ، وقال له أحدهم : «كنت رائعا ، ىا عزىزي . » بل إن أحدهم أرادني شاهدا فقال لي : (هيه ، أليس كذلك؟» فوافقته ، ولكنني لم أكن مخلصا ؛ فقد كنت متعبا .

بالرغم من ذلك ، كان الوقت قد تقدم ،. والحرارة قد هدأت . وعن طريق الضوضاء التي كانت تصلني من الخارج ، رحت أخمن مدى الليل الذي أقبل . لقد كنا هنا جميعا ننتظر ، وكل ماكنا ننتظره جميعا ، لم يكن يخص أحدا سواى . نظرت إلى القاعة مرة أخرى . كانت في حالتها التي كانت عليها في اليوم الأول . وتلاقت نظراتي بنظرات الصحفي الشاب ، ذا الحلة الرمادية ، وبنظرات المرأة الآلية . وقد جعلني ذلك أكتشف أنني لم أبحث بنظراتي عن مارى طوال القضية . لم أكن قد نسيتها ، ولكن كان لدى الكثير من الهموم ، وهانا ذا أراها بىن

سىلىست وريمون – أشارت إلى وكأنها تقول : « ها هي ذي النهاية . » ورأيتها تبتسم رغم القلق البادي عليها. ولكن قلبي كان مثقلا وحزينا ، فلم أرد حتى على ابتسامتها .

عادت المحكمة إلى الانعقاد ، ثم قرأ على المحلفون مجموعة من الأسئلة منها « مذنب » ... «قتل عمد » ... ظروف مخففة » . ثم خرج المحلفون من جديد ، ثم اقتادوني إلى الحجرة الصغيرة التي انتظرت فيها من قبل . وهناك جاءني المحامي : تحدث إلى بكثير من الثقة والرقة ، الأمر الذي لم يفعله من قبل . كان لايزال يعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام . وأنني فقط سوف أقضي بعض السنوات في السجن أو في الأشغال الشاقة ، فسألته عما إذا كانت هناك أية فرصة للنقض في حالة صدور أي حكم غير موافق ، فأجاب بالنفي ، وشرح لي أننا لا نستطيع أن ننقض أي حكم ، هكذا وبدون داع ، وقد بدا لي أن ذلك منطقي ، فوافقته على ذلك . وإذا | ما نظرنا – ببرود– إلى الأمر ، فقد كان ذلك طبيعيا أيضا ، أما في حالة النقض فإن ذلك سيقودنا إلى كثير من الأوراق والإجراءات عديمة الجدوى، ثم قال : « على كل حال ، فإن هناك الالتماس بالعفو ، ولكنني أعتقد أن الخاتمة ستكون مناسبة ».

انتظرنا وقتا طويلا جدا ، ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة على ما أعتقد. وفي النهاية دق أحد الأجراس ، فغادرني المحامي وهو يقول : « رئيس المحلفين سوف يقرأ الإجابات ، ولن يتم إدخالك إلا عند النطق بالحكم .» وبعدها سمعت أصوات أبواب تغلق ، وأشخاص يهرولون فوق السلام ، | ولم أكن أدري أقريبون هم أم بعيدون ، ثم سمعت صوتا مكتوما يقرأ شيئا داخل القاعة ، وعندما دق الجرس من جديد ، وفتح الباب ليدخلوني إلى القاعة ، كان الصمت هو الذي قابلني ، الصمت ، وذلك الإحساس العجيب الذي شعرت به حينها وجدت أن الصحفي الشاب لم يعد ينظر ناحيتي . ولم أنظر – أنا – ناحية مارى . لم يكن لدى الوقت ؛ لأن الرئيس قد قال لي عبارة عجيبة مفادها أنهم سوف يطيحون برأسي في أحد الميادين العامة باسم الشعب الفرنسي .

عند ذلك أحسست أنني أعرف الشعور المرسوم فوق تلك الوجوه . وأعتقد أنه كان شعورا بالتقدير . رجلا البوليس ترفقا بي كثيرا ، والمحامي وضع يده فوق يدي ، ولم أعد أفكر في أي شيء ، ولكن الرئيس سألني إن كنت أريد أن أضيف شيئا ، ففكرت ، ثم قلت : « لا .» وعندها أخذوني.

للمرة الثالثة ، رفضت استقبال القس ، فلم يكن لدي ما أقوله له ، وليس لدى الرغبة في التحدث . إن كل ما يهمني الآن ، هو أن أجد لننسى مخرجا من ذلك المصير المحتوم . لقد نقلوني إلى زنزانة أخرى . ومن تلك الزنزانة ، عندما أكون ممددة ، أستطيع أن أرى السماء ، ولا يمكنني أن أرى غيرها . فكنت أقضي أيامي في النظر إلى موت الألوان فوق صفحتها ، الأمر الذي يقود النهار إلى الليل . كنت أقضي أيامي راقدا و يداي تحت رقبتي ، أنظر إلى السماء ، وأنتظر ، ولا أدري كم عدد المرات التي سألت فيها نفسى عما إذا كانت هناك أمثلة

المحكوم عليهم بالإعدام ، استطاعوا أن يجدوا لهم مخرجا من ذلك المصير : اختفوا – مثلا – قبل التنفيذ ، أو اخترقوا حواجز الامن . وحينئذ كنت أعاتب نفسي ؛ لأنني لم أكن أعطى اهتماما كبيرا لقصص الإعدام . من المفروض أن نهتم دائما بأمثال تلك المسائل؛ فنسنا ندرى على الإطلاق ما قد تجلبه لنا الأيام . مثل كل الناس كنت أقرأ عن تلك الأشياء في الصحف ، ولكن – وبالتأكيد – فإن هناك مراجع متخصصة لم يدفعني فضولي أبدا للاطلاع عليها . في تلك المراجع – ربا – كنت سأجد قصصا للهروب ، وربما وجدت في حالة من تلك الحالات – ولو حالة واحدة – أنه كان هناك مخرج ، وأن الطريق المفضي إلى الموت قد توقف ، وأن الصدفة أو الحظ ربها – ولو لمرة واحدة – قد غير شيئا من ذلك القدر المقسوم . مرة واحده كانت ستكفيني ! وكان قلبي سيتكفل بكل شاء بعد ذلك . كانت الصحف تتحدث دواما عن دين تجاه المجتمع ، وأنه يجب – طبقا لتلك الصحف – أن ندفعه ، ولكن ذلك كله لا يثير الخيال ؛ فالأمر الذي كنت أعتد به ، هو مجرد فرصة للإفلات ، قفزة محمومة خارج ذلك النطاق المحكم ، أو جرية مجنونة تعطى فرصة للأمل . وبالطبع فإن ذلك الأمل يتضمن قتلى بإحدى الرصاصات عند أحد المنعطفات أثناء الجري . ولكن إذا وضعنا في الاعتبار كل المعطيات ، فإنه حتى ذلك الأمل مستحيل . لا شيء يمكنه أن يسمح لي بمثل تلك الهبة . كل شيء يمنعني من ذلك، والمصير المحتوم يبتلعني .

ورغم نىتي الطيبة ، لم أكن أستطيع أن أتقبل تلك الحقيقة المهينة ؛ لأنه قد تبين لي ، أن هناك تنافرا مضحكا بين الحكم الذي بني على أساسه ذلك المصير وبين طريقة تنفيذه المحتومة . فكون الحكم قد تلى في الساعة الثامنة بدلا من الخامسة ، وكونه لم يكن حكا مغايرا، وكونه قد صدر عن هؤلاء الرجال وليس عن آخرين ، وكونه قد نسب إلى ذلك المفهوم الغامض ، كالشعب الفرنسي (أو حتى الألماني او الصينى) ، فقد بدا لي أن كل ذلك يقلل كثيرا من جدية ذلك الحكم . وبالرغم من ذلك ، فلم يكن هناك بد من الاعتراف بأنه منذ اللحظة التي صدر فيها ذلك الحكم ، فإن آثاره قد أصبحت حقيقة واقعة وجادة تماما مثل حقيقة وجود ذلك الجراد الذي أرقد إلى جواره وأسحق جسدي بالضغط عليه .

في تلك اللحظات ، تذكرت قصة كانت أمي قد روتها لي عن أبي . أبي الذي لم أكن قد عرفته . فكل ما كنت أعرفه بالتحديد عن ذلك الرجل ، ربما كان ذلك الذي روته أمي : كان قد ذهب – في إحدى المرات – لرؤية إعدام أحد القتلة . كانت فكرة الذهاب تزعجه ، ولكنه ذهب رغم ذلك ، وعندما عاد ظل يتقيأ طوال اليوم ، ولم أفهم لماذا ، أما الآن فقد فهمت ، كيف لم أر أنه لا شيء يعادل في أهميته عملية الإعدام ، وأن الموت – في الحقيقة – هو الشيء الوحيد الأهم في حياة الإنسان . وإذا حدث وخرجت من ذلك السجن فإنني سوف أذهب لرؤية كل الإعدامات ، وأعتقد أنني أخطأت ، لمجرد التفكير في تلك الإمكانية ، إمكانية الخروج من السجن ؛ لأن خلف تلك الفكرة ، فكرة أن أرى نفسي ذات صباح – حرا طليقا – وراء صف من رجال الأمن ، أعني في الناحية الأخرى من ذلك الصف ، فكرة أن أكون

متفرجا ليرى ، وعندما يعود يمكن أن يتقيأ ، كان هناك – خلف تلك الفكرة – طوفان من الفرح المسموم الذي يطغى على القلب . ولم يكن ذلك من التعقل في شيء ، لقد أخطأت عندما تركت لنفسي عنان الخيال ؛ لأنني في اللحظة التالية لذلك ، أحسست بنوع من البرد المؤلم الرهيب ، حتى إنني تقوقعت تحت غطائي وراحت أسنانى تصطك دون أن أتمكن حتى من إيقافها .

ولكنه شيء طبيعى ، فنحن لا نستطيع أن نكون عقلاء على الدوام . حتى إنني – في بعض الأحيان مثلا – كنت أضع مشروعات قوانين ، وكنت أعيد تقدير الجزاءات ، وكنت قد لاحظت أن المهم هو إعطاء فرصة للمحكوم عليه ، ولو فرصة واحدة لا الف ، فقد يكون ذلك كافيا لتغيير الكثير . فكنت أتخيل أننا يمكننا أن نخلق تركيبة كيميائية تكفي حال امتصاصها لقتل « المريض » ، (وكنت أقول المريض بدلا من المحكوم عليه تسع مرات كل عشرة). عند ذلك ستظل هناك فرصة ضيئلة للإفلات ، وهو يعرف ذلك وهذا هو الشرط ؛ لأنه بالتفكير العميق الهاديء ، كنت أجد أن الشيء المعيب في آلة قطع الراس ، هو أنها لاتترك أية فرصة للإفلات على الإطلاق . فإذا ماتقرر قتل المحكوم عليه فإن الأمر يصبح محتوما ولا رجعة فيه . وحتى إذا أخطاته الضربة – على فرض حدوث ذلك – فإنهم يعاودونها من جديد . وبناء على ذلك ، فإن الشيء البغيض هنا ، هو أن المحكوم عليه نفسه يصل به الحال إلى أن يتمنى النجاح للآلة . وأقول : إن ذلك هو الجانب المعيب – وهذا صحيح من ناحية ، ولكن ، من الناحية الأخرى – فإنني مضطر إلى الاعتراف بأن ذلك في حد ذاته هو سر نجاح ذلك التنظيم . فالمحكوم عليه مضطر للتعاون نفسيا ؛ فهو في حاجة ، بل إن من مصالحه أن يسير كل شيء دون عقبات .

كنت مضطرا أن أعترف أيضا ، أن أفكارى – حتى ذلك الحين – حول تلك المسائل ، لم تكن صائبة ؛ فقد كنت أعتقد لوقت طويل – ولا أدري لماذا – أنه للوصول إلى المقصلة كان لابد من الصعود فوق إحدى المنصات ، عبر مجموعة من السلالم ، وأعتقد أن ذلك كان نتيجه لثورة ١٧٨٩ ، أريد أن أقول نتيجة لكل ما تعلمناه أو رأيناه عن تلك المسائل ، ولكن ذات صباح ، تذكرت صورة كانت الصحف قد نشرتها ، لتنفيذ أحد أحكام الإعدام المشهورة . في الواقع ، كانت الآلة موضوعة – بكل بساطة – على الأرض، وكانت أقل حجمها مما كنت قد تخيلت . لقد كان شيئا مضحكا ، ألا أعرف ذلك من ذي قبل . كانت تلك الآلة – في الصورة – قد بهرتني بطريقة عملها المتقنة والقاطعة . فنحن نضع دائما أفكارا مبالغا فيها عما لانعرفه . لقد عرفت أن الآلة توضع ببساطة في نفس مستوى الإنسان ، الذي يتقدم نحوها . ثم يلحق بها ، تماما كا نمشى – نحن – لملاقاة أي إنسان . وذلك أيضا كان شيئا بغيضا ؛ لأن الصعود إلى المنصة ، والصعود نحو السماء يمكن أن يمزجها الخيال ، في حين أن الآلة في تلك الحالة ، تسحق كل شيء : تقتلنا في سرية ، بقليل من العار ، وكثير من الدقة .

كان هناك أيضا شيئان أفكر فيها طوال الوقت : الفجر ، والالتراس ، رغم أنني كنت أحاول التعقل وأحاول ألا أفكر فيها ، فكنت أستلقي ، وأنظر إلى السماء، وأحاول ألا أهتم بغير ذلك . هاهي تميل إلى الاخضرار ، إنه المساء . كنت أحاول أن أوجه أفكاري إلى وجهة أخرى ، فكنت أنصت إلى قلبى . لا أستطيع أن أتخيل أن تلك الدقات التي صاحبتني ذلك الزمن الطويل يمكن أن تتوقف إلى الأبد . لم أكن في يوم من الأيام صاحب خيال، ولكنني كنت أحاول . لقد حاولت أن أتخيل نفسي في الثواني التي توقفت فيها تلك الدقات عن الوصول إلى رأسي ، ولكن ، ورغم ذلك ، فإن الفجر والاستئناف كانا دائما هنا ، ثم انتهى بى الأمر إلى القول بأن أكثر الأمور تعقلا هو ألا أحاول عناد نفسي .

إنهم يأتون دائما عند الفجر . لقد كنت أعرف ذلك . وفي الواقع ، فإنني كنت أقضي الليالي أنتظر ذلك الفجر ، فلم أكن أحب أبدا أن أفاجأ . فإذا كان هناك شيء سيحدث لى ، فأنا أحب أن أكون في انتظاره ؛ ولذلك فقد انتهى بي الأمر إلى الإقلاع عن النوم ، سوى قليل من الوقت أثناء النهار . أما الليالي الطويلة ، فقد كنت أقضيها أنتظر في صبر مىلاد ضوء يوم جديد فوق صفحة السماء . أما أصعب الأشياء ، فكانت تلك الساعة المريبة ، التي أعرف أنهم – عادة – مايعملون فيها . فبعد انتصاف الليل ، كنت أنتظر وأترقب ، ولم يحدث أبدا – من قبل – أن التقطت أذني ذلك الكم من الضوضاء والأصوات الخافتة ، وأستطيع أن أقول : إن الحظ قد حالفني خلال تلك الفترة ، حيث لم أسمع أصوات أية أقدام . كانت أمي تقول دائما : إننا مهما كنا تعساء فإن هناك من هو أكثر تعاسة . ولقد كنت أجد ذلك صحيحا داخل السجن عندما كانت السماء تتلون وحينها كان اليوم الجديد يتسلل إلى زنزانتى ؛ لأنه – بدلا من ذلك – كان من الممكن أن أسمع وقع خطوات وعندها كان قلبي سينفجر . وحتى إذا كان أقل حفيف يجعلني ألقي بنفسي أمام الباب ، وحتى عندما كنت ألصق أذني بأرضية الزنزانة ، وأنتظر ملهوفا خائفا حتى لايعود هناك سوى صوت تنفسى المبحوح الذي يقترب من حشرجة الكلاب . حتى مع كل هذا فإن قلبي لا ينفجر . حتى مع هذا أكون قد ربحت أربعا وعشرين ساعة جديدة .

وطوال النهار ، كان هناك الالتباس . وأعتقد أنني قد انتفعت بتلك الفكرة أفضل انتفاع ، فكنت أحسب توقعاتي وأحصل من ردود فعلي على أفضل ما يمكن الحصول عليه . ودائما كنت أفترض أسوأ التوقعات : رفض الالتماس « إنني إذن سأموت . » هذ واضح جلي ، وكلنا يعلم أن الحياة لا تستحق عناء الحياة ، وفي الواقع فإنني لم أكن أجهل أن الموت في الثلاثين أو في السبعين لا يختلف كثيرا ، حيث سيكون هناك – في الحالتين – رجال ونساء آخرون يعيشون ، وسيستمر ذلك لآلاف السنين . وفي الواقع ، لم يكن هناك أكثر من ذلك المنطق ، هو تلك القفزة الرهيبة التي أحسستها بداخلى لمجرد التفكير في ضياع العشرين سنة القادمة من حياتي . ولكن لم يكن أمامي سوى خنق ذلك التفكير ، وذلك بأن أتخيل ماستكون عليه أفكارى بعد عشرين سنة عندما يحين وقت الموت . فطالما أننا سنموت ، فإن الكيفية والزمان لايعنيان

الكثير ، وهذا شيء بديهي . وبناء عليه والأمر الصعب هو ألا ننسى أبدا كل ما تمثله عبارة « وبناء عليه » من منطقية) ، وبناء عليه ، يجب أن أقبل احتمال رفض الالتماس .

في تلك اللحظة ، في تلك اللحظة فقط ، يكون على الحق – إذا جاز التعبير – في مناقشة الاحتمال الثاني : العفو ، والمزعج في هذا الاحتمال ، هو أنه كان من المهم التقليل من ذلك الاندفاع الهائل للدم الذي كان يؤلم عىنى من جراء تلك الفرحة الهوجاء ، كان من المهم أيضا التقليل من حدة الصراخ . كان من المهم أن أبقى طبيعيا خلال مناقشة هذا الاحتمال ، حتى يكون قبولى ممكنا للاحتمال الأول . وعندما نجحت في ذلك ، كنت قد جنىت ساعة من الهدوء . وقد كان هذا شيئا لايستهان به .

وفي لحظة من تلك اللحظات ، رفضت مرة أخرى استقبال القس . كنت مستلقيا، وكنت أخمن مدى اقتراب الليل مستعينا بأضواء السماء . كنت قد انتهيت لتوي من رفض الالتماس ، وكنت أحس بومضات الدم تسرى داخلى بانتظام ، ولم أكن في حاجة إلى رؤية القس . وللمرة الأولى – منذ فترة طويلة – رحت أفكر في مارى . هاهي أيام طويلة قد مرت دون أن تكتب إلى . في ذلك المساء فكرت فيها ، وقلت : إنها ربما تكون قد تعبت من بقائها صديقة لمحكوم عليه بالإعدام ، ثم خطر أيضا أنها ربما تكون مريضة أو تكون قد ماتت . لم يكن ذلك مستبعدة . فكيف لي أن أعرف ، طالما أنه فيما خلا جسدينا اللذين قد صارا الآن متفرقين ، فإنه لاشيء يجمع بيننا، ويذكر أحدنا بالآخر . ومنذ تلك اللحظة لم تعد ذكرى مارى تعنيني في شيء . فلو كانت قد ماتت ، فإنها أيضا لاتعنيني في شيء، ولقد كان ذلك طبيعيا ، مثلا كنت قد استوعبت أن الناس سوف تنسانى حالما أموت .

وفي تلك اللحظة بالضبط دخل القس . عندما رأيته ارتعدت . وقد لاحظ هو ذلك ، فطلب إلى ألا أخاف ، فقلت : إنه يأتي – عادة – في غير ذلك الوقت ، فقال : إن تلك زيارة ودية ، وليس لها علاقة بالتاسي الذي لايعرف عنه شيئا ، ثم جلس على حافة السرير، ودعاني إلى الجلوس بجانبه ، فرفضت ، رغم أن علامات الطيبة والرقة كانت تبدو عليه .

بقى القس جالسا لبعض الوقت خافضا الرأس ، مستندا بمرفقيه فوق ركبتيه ، وناظرا إلى يديه ، ثم راح يفرك كفيه ببطء – واستمر خافضا رأسه وجالسا على تلك الحال وقتا طويلا ، حتى إنني شعرت وكأنني قد نسيته .

ولكنه رفع رأسه فجأة ، ونظر إلى وجهي قائلا : « لماذا رفضت زىارتى إليك ؟ » فقلت : لأنني لا أومن بالرب ، فأراد أن يعرف ما إذا كنت متأكدا | من ذلك ، فقلت : إنه ليس هناك ما يدفعني إلى أن أسأل نفسي ذلك السؤال ؛ فذلك في رأيي أمر لا أهميه له . حينئذ رفع القس رأسه واستند إلى الحائط ويداه مبسوطتان فوق ركبته ، ثم قال دون أن يبدو عليه أنه يحدثنى : قد نعتقد – في بعض الأحيان – أنا متأكدون ، ولكننا في واقع الأمر نكون غير ذلك ، فلم أقل

شيئا ، فنظر إلى وسألني : « ماذا تقول ؟ » فقلت : إن ذلك محتمل ، وعلى كل حال فإنني ربما لم أكن واثقا مما يهمني حقيقة ، ولكني على تمام الثقة مما لا يهمني ، وإن ما يحدثني عنه هو بالتحديد – مما لايهمني .

أشاح بنظره ، وسألني – دون أن يغير موقفه – عما إذا كنت أتحدث بتلك الطريقه نظرا لما أعانيه من اليأس ، فقلت : إنني لست يائسا ، وإنني خائف فقط ، وإن ذلك أمر طبىعى ، فقال : « إن الرب سيساعدك ، وكل الذين عرفتهم في نفس موقفك عادوا إليه ، « فاعترفت له أن ذلك حق من حقوقهم . وقد يكون أيضا لأن الوقت كان متسعا أمامهم ، أما الأمر بالنسبة الى فهو مختلف ، فأنا لا أريد أن يساعدني أحد ، كما أنه ليس لدى الوقت لكي أهتم بما لم يكن يهمني .

وفي تلك اللحظة ، حرك يديه في ضيق ، ولكنه اعتدل وراح يعيد ترتيب ثنيات وشاحه ، وعندما انتهى من ذلك ، توجه إلى مخاطبا إياى يا صدىقى، قال : إنه إذا كان يخاطبني بتلك الطريقة فليس ذلك لأنني محكوم عليه بالإعدام ؛ لأننا جميعا – في رأيه – محكوم علينا بالإعدام ، فقاطعته قائلا : إنه ليس هناك وجه للمقارنة ، كما أن ذلك لايرقى – باى حال من الأحوال – حتى إلى مرتبة العزاء ، فأيد هو ذلك قائلا : بالتأكيد»، ولكنك ستموت بعد حين إن لم تمت اليوم ، وعندها سوف يكون عليك مواجهة نفس الموقف والإجابة عن نفس السؤال ، فكيف ستواجه ذلك الامتحان الرهيب؟ ، فقلت : إنني سوف أواجهه بنفس الطريقة التي أواجهه بها الآن . عند ذلك الحد وقف ونظر إلى مباشرة في عىنى . وتلك لعبة أعرفها جيدا . لقد كنت ألعبها للتسلية مع إيمانويل أوسيليست ، وغالبا ما كانا يشيحان بأبصارهما أمامي ، ويبدو أن القس كان يعرف أيضا تلك الطريقة ؛ لأن نظراته كانت ثابتة لاتهتز كما أن صوته أيضا كان ثابتا لا يرتعد عندما قال : « إذن فليس لديك أي أمل ، وتعتقد أنك ستموت ، ستموت بالكامل إلى الأبد . « فقلت : « نعم . » حنيئذ أطرق براسه وجلس ، ثم قال : إنه يشعر بالأسى من أجلى وقال : إن ذلك الأمر لايحتمله بشر ، فيما أحسست – أنا – أنه قد بدا يسبب إلى الملل ؛ لذا قد استدرت وذهبت لأقف بعيدا مستندا إلى الجدار ، ولم أعد أتابع تماما ما يقول ، ولكنني سمعته يبدأ من جديد في استجوابى . كان يتكلم بصوت مملوء بالقلق والرجاء . لقد كان متأثرا ؛ ولذا فقد رحت أنصت إليه .

قال : إنه واثق أن استئناف سوف يتم قبوله ، ولكنني سوف أظل أجل على كاهلى عبئا لابد أن أتخلص منه ، وقال : إن عدالة البشر لا تساوي شيئا | إلى جانب عدالة الرب . وعندها قلت : إن العدالة الأولى هي التي أدانتى، فقال : إن تلك الإدانة لم تم – مع ذلك – خطيئتي . فقلت : إنني لا أعرف ماذا تعني الخطيئة ، فهم قد قالوا لي فقط : إنني مذنب . لقد كنت مذنبا وهأنا ذا أدفع الثمن ، ولا أحد يستطيع أن يطلب منى المزيد. عند ذلك الحد نهض القس من

جديد . ففي تلك الزنزانة الضيقة، إذا كان يريد أن يتحرك ، فليس أمامه مجال للاختيار : فإما أن يجلس ، وإما أن يقف .

كانت عيناي على الأرض . فخطا نحوى خطوة ، ثم توقف ، وكأنه لم يجرؤ على التقدم ، ثم نظر إلى السماء عبر القضبان ، ثم قال : « أنت تخطىء ياولدي . فهناك من يستطيع أن يطلب إليك المزيد ، وربما سوف يطلبه .)| فقلت : وماذا سيطلب إلى ؟ قال : «سيطلب إليك أن ترى ، فسألته : أرى ماذا ؟ فنظر القس من حوله ثم أجاب بصوت متعب : « أنا أعرف أن كل تلك الحجارة تشعر بالألم . فلم أنظر إليها أبدا دون أن يصيبني القلق . ولكنى – ومن أعماق قلبي – أعرف أن أكثر الناس تعاسة استطاع أن يرى عبر تلك الأحجار وجه الرب ، وهذا الوجه هو الذي يجب أن تراه.»

على إثر ذلك انتابني شيء من الحراسة فقلت : إنني أنظر إلى تلك الحوائط منذ شهور طويلة ، وليس هناك شيء أو شخص أعرفه في العالم كله أكثر من معرفتي بها ، وإنني – منذ وقت طويل – ربا كنت قد بحثت فيها عن أحد الوجوه ، ولكن ذلك الوجه كان له لون الشمس ، وكان له سعير الرغبة : لقد كان وجه مارى . كنت قد بحثت عنه دون جدوى . أما الآن فقد انتهى كل شيء . وعلى كل حال ، فإنني لم أر شيئا يخرج من بين تلك الأحجار .

انظر إلى القس بنوع من الأسى والحزن . كنت في ذلك الوقت مستندا تماما إلى الجدار ، وضوء النهار ينساب فوق جبهتي ، فقال بعض الكلمات التي لم أتبينها جيدا ، ثم سألني بسرعة إذا كنت أسمح له أن يقبلني ، فقلت : «» فاستدار ناحية الجدار ، ومر عليه براحته في بطء وهمس قائلا : « إلى هذا الحد تحب الحياة على تلك الأرض ؟ » فلم أرد . .

مكث القس طويلا وظهره إلى ناحيتي ، ولكن مجرد وجوده كان يزعجني ويثقل على ، وبينما كنت أتهيأ لأن أطلب إليه أن يدعني وشأني وجدته يستدير ناحيتي ويصيح فجأة : «لا ، لا أستطيع أن أصدقك ، إننى واثق من أنك قد رغبت يوما ما في حياة أخرى . » فقلت : بالطبع ، ولكن ذلك لم يكن له أية أهمية ، ولايختلف كثيرا عن رغبتي في أن أصبح غنيا أو في أن أصبح سباحا ماهرا أو في أن أمتلك وجها أفضل من هذا . إن ذلك كله هو نفس الشيء .

ولكنه أوقفني ، لقد أراد أن يعرف كيف أتخيل تلك الحياة الأخرى . فقلت : هي حياة أستطيع أن أتذكر تلك التي أعيشها ، ثم أضفت على : الفور : إنني لم أعد أحتمل ولا أريد المزيد . وكان هو يريد أن يحدثنى من جديد عن الرب ، فتقدمت إليه ، وحاولت أن أوضح له للمرة الأخيرة أنه لم يعد لدي سوى قليل من الوقت ، وأنني لا أريد أن أضيعه مع الرب . فحاول أن يغير مجرى الحديث ، وسألني : لماذا أناديه بيا « سىدى » بدلا من يا « أبي » ؟ وقد ضايقني ذلك ، فقلت له : إنه ليس أبى : وإنه مع الآخرين .

قال وهو يضع يده فوق كتفي : «لا يابني ، إنني معك . ولكنك لاترى ذلك ؛ لأن لك قلبا لايرى ، وسوف أصلى من أجلك .»

عند ذلك الحد ، ولا أعرف لماذا ، أحسست أن شيئا قد انفجر بداخلى فرحت أصرخ بكل قوتي وألعنه ، وقلت له ألا يصلى من أجلى ، ثم أمسكته من ياقته ، ورحت أصب عليه كل ما أجده في أعماق قلبى مضافا إليه خليط من القفزات الممزوجة بالفرح والغضب . لقد كان واثقا مما يقول ، وبالرغم من ذلك فإن هذه الثقة لاتساوى شعرة واحدة من رأس امراة . إنه حتى لم يكن واثقا من كونه على قيد الحياة ؛ لأنه كان يحيا كالميت ، أما أنا ، فكنت أبدو خالي الوفاض ، ولكنني كنت واثقا من نفسي ، واثقا من كل شيء، كنت أكثر منه ثقة ، كنت واثقا من حياتي ومن الموت الذي أنتظره ، نعم ، لم يكن لدى غير ذلك ، ولكنني على الأقل كنت قابضا على تلك الحقيقة بمثل القدر الذي تقبض به على . إنني كنت على حق ، ولازلت على حق . لقد عشت بطريقة ما ، وكان من الممكن أعيش بطريقة أخرى . لقد فعلت هذا ، وكان من الممكن أن أفعل ذاك ، ثم ماذا ؟. إن ذلك يشبه إذا ما كنت قد انتظرت طوال الزمان تلك الدقيقة من ذلك الفجر لتبرير ما اقترفت، ولكن لاشيء ، لاشيء على الإطلاق يستحق تلك الأهمية ، وأنا | أعرف السبب ، وهو أيضا يعرفه . فمن أعاق مستقبلي ، وطوال تلك الحياة السخيفة التي عشتها ، كان هناك شيء غامض يصعد نحوى عبر السنين التي لم تكن قد أتت بعد، وكان ذلك الشيء الغامض يساوي ويسير في نفس الطريق الذي يسير فيه كل ما كانوا قد عرضوه على عبر تلك السنين الغامضة التي كنت أعيشها . ما الذي يهمني في موت الآخرين ؟ ما الذي يهمني في حب الأم ؟ ما الذي يهمني في ربه ؟ ما الذي يهمني في الحياة التي نختارها، والأقدار التي نختارها ، طالما أن هناك قدرا واحدا هو الذي اختارني . في حين أن هناك المليارات من المحظوظين –مثله – الذين يدعون إخوتي ؟ فهل يفهم ؟ هل يفهم ذلك ؟ كل الناس محظوظون ، ليس هناك سوى هؤلاء المحظوظين ، وهؤلاء سوف يحكم عليهم يوما ما ، وهو أيضا سوف يحكم عليه . ما الذي يهم مذنبا بجريمة قتل إذا أعدموه لأنه لم يبك في جنازة أمه ؟ كلب سالامانو كان يساوي زوجته ، والمراة الآلية كانت مذنبة بنفس القدر الذي كانت عليه تلك الباريسية التي تزوجها ماسو ، أو بنفس القدر الذي كانت عليه مارى التي كانت تريدني أن أتزوجها . ما الذي يهمني إذا كان ريمون قد صار صدىقى بنفس القدر الذي كان عليه سىلىست ، رغم كون الأخير أفضل من الأول ؟ ما الذي يهمني إذا أحبت ماري اليوم مىرسو جديدا ، فهل يفهم هذا المذنب، أنني من أعماق مستقبلى ..... لقد كنت أصرخ حتى إنني أوشكت على الاختناق . ولكنهم كانوا قد انتزعوا القس من بين يدي . وراح الحراس يهددوننى . ولكنه – على الرغم من ذلك – راح يمنعهم ثم ينظر إلى في صمت ، وعندما استدار واختفى . كانت عيناه مليئتين بالدموع .

عندما رحل القس ، حل بي الهدوء . كنت مجهدا ، فألقيت بجسدى فوق مضجعي ، وأعتقد أنني قد غفوت ؛ لأنني عندما استيقظت كانت هناك نجوم فوق وجهي ، وكانت ضوضاء

الريف تتصاعد من الخارج لتصل إلى ، وروائح الليل والأرض والملح كانت تنعش رأسي . كان السلام الرائع لذلك الصيف الهادىء يتخللني . في تلك اللحظة على حدود الليل انطلقت بعض الصفارات ، إيذانا بالرحيل إلى عالم لم يعد يهمني الآن في شيء . وللمرة الأولى منذ وقت طويل تذكرت أمي ، وبدا لي أنني قد فهمت لماذا اتخذت لنفسها « صديقا» في نهاية حياتها . لماذا كانت تريد أن تبدأ من جديد . فهناك ، ومع اقتراب الموت ، كانت أمي مستعدة أن تبدأ الحياة ليس لأحد قط الحق في أن يبكي عليها ، وأنا أيضا أحسست أنني مستعد أن أبدأ الحياة من جديد ، وكأن تلك الغضبة الكبرى قد خلصتنى من الشر وأفرغتني من الأمل . في ذلك الليل الذي يفيض بالنجوم ، أحسست للمرة الأولى بعذوبة ورقة اللامبالاة ، وأحسست أنني كنت سعيدا في يوم من الأيام ، ولازلت حتى الآن ، أتمنى أن ينتهي كل شيء، وأتمنى أن أكون هناك أقل وحدة من هنا ، ولم يبق سوى أن أتمني أن يكون هناك الكثير من المتفرجين يوم الإعدام ، وأن يستقبلوني بصرخات الحقد والغضب .

كامى .. والغريب

هناك من الكتاب من يحاول أن يؤقلم حياته مع معتقداته . وهناك نوع آخر لا يستطيع إلا أن يؤقلم معتقداته مع الحياة . والبير كامي هو من ذلك النوع الأخير . وإذا أردنا أن نعرف لماذا ، فعلينا أن نسأل أنفسنا : هل يمكننا أن نكتشف حقيقة آراء ومعتقدات أي إنسان دون أن نكتشف حقيقة حياته ؟ . او بمعنى آخر : هل حقيقة وقيمة الإنسان منفصلة عن حقيقة وقيمة آرائه ومعتقداته ؟ . لقد أجاب البير كامي عن تلك الأسئلة دون لبس أو غموض ، فقال : إن معتقدات وآراء الإنسان ليست إلا ترجمة لحياته ، وإن طريقة التفكير تكشف عن طريقة الحياة ؛ فالإنسان لا يمكن إلا أن يكون محصلة لما يفعل ولما يقول ، سواء كان ذلك إراديا أولا إراديا ولذلك فإن شغله الشاغل لم يكن سوى محاولة اكتشاف الأبعاد الحقيقية للإنسان ، وبالتالى فإن فلسفته كانت بكل تأكيد إنسانية وجودية . وهى فلسفة مغايرة للفلسفات الروحية والمادية والوجودية . إنها فلسفة اكتشاف الإنسان عن طريق اكتشاف وجوده التلقائي . لقد كان يطمع في إفراغ الإنسان من كل ما هو لا إنساني ، ولكنه كان يريد أن يفعل ذلك بعيدا عن المبدأ القائل « إن كل شيء مباح » ولذلك فقد حاول جاهدا أن يوضح أن الإنسان ليس في حاجة للانتساب إلى مبادىء أخلاقية عليا حتى يكون على خلق .

وليس معنى ذلك أن البير كامي كان فرديا أو فوضويا ؛ لأن الفردي يقول : لا لكل ما لا يتفق مع أهوائه الشخصية ، في حين أنه منذ البداية كان قد قال : نعم لكل مايربطه بالآخرين ، أما ال (لا) فلم يكن يرفعها إلا أمام ما يختلف باختلاف الإنسان : كالعادات والآمال والتاريخ والدين . « | إن ما أريده من الإنسان هو أن أخلصه من أعضائه الوهمية ؛ كي يدرك في نهاية الأمر أنه قد صار واضحا ومتجانسا ».

بعد أن أشار إلى ما هو مشترك بين بني الإنسان ، أراد البير كامي أن يبرز ما يميزهم كالضمير مثلا . ولقد فعل ذلك موضحا أن تلك الاختلافات الاتفرقهم ولا تغرقهم في بحور العزلة بقدر ماتنظمهم وتؤلف بينهم ؛ لأن الناس لو كانوا متشابهين تماما لما أمكن جمعهم إلا في قطيع ». وها نحن أمام توازن دقيق بين أوجه التشابه وأوجه الخلاف . وهذا مايميز دائما فكر البير كامي الإنساني ، حيث إن أي فكرة لايمكن أن تكون إنسانية إلا إذا | كانت تحدها فكرة مضادة .

ويبدو أن حياة البير كامي نفسها هي التي دفعته إلى ذلك المنحى ، أي إلى أن يؤقلم معتقداته وآراءه مع الحياة . فالسخرية والدعابة – مثلا – في أسلوبه لم تستحدثا من العدم ، بل يبدو أن ميلادها كان مرتبطا ببعض الإحباط ، فرغم أنه كان يعلن سعادته لكونه قد ولد فقيرا محتاجا ، فإنه لم يتوان عن السخرية والدعابة من ذلك الفقر وذلك الاحتياج ومن كل مايترتب

عليها ، حتى إنه قد واصل ذلك الأسلوب حتى بعد أن انزاح عن كاهله ذلك العوز بدافع من الإخلاص لمبادئه وللقيم التي كان الفقر والاحتياج قد ولدها لديه . وها هو بواسطة السخرية والدعابة يتخلص من المأزق الذي يقع فيه من يريدون إيجاد حقيقة العلاقة بين الحياة والموت، والحياة والخلود . فيقول : إن « الموت هو الجسر الفاصل بين النوم الملىء بالمناظر والنوم الخالي من الأحلام ». وها هو ذا أيضا يكتب لتقديم طبعة جديدة لأحد كتبه القديمة فيقول « إذا كنت قد مشيت طويلا منذ ظهور ذلك الكتاب ، فإنني على العكس من ذلك لم أتقدم كثيرا . ففي غالب الأحيان عندما أعتقد أنني أتقدم أجد نفسي أتقهقر .

برزت له الحياة « عادية » من كل زيف ، فلم يحجبه عنها شيء ، ولم يقف بينه وبين ذلك العالم حائل : من مال أو جاه أو دين أو معتقدات . فلم يكن هناك شيء يملكه ؛ لأنه هو نفسه لم يكن يملك شيئا ؛ ولذلك فقد استطاع أن يحتفظ بحريته الحقيقية تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

وفي البداية راح ألبير كامى پارس تلك الحرية في معالجة الإنسان عن طريق فحصه على حالته الفردية من حيث : السعادة والموت والحرية والعمل والحب والخلق . وفي أثناء ذلك كان يريد أن يتأكد من أننا لن نهرب خارج الحدود الإنسانية.

حاول دائما أن يرسم ويؤكد الحدود بين المباح والممنوع . وراح ينادي بأنه ليس كل شيء مباحا ». وإذا حدث – في بعض المرات – وقال عكس ذلك ، فقد كان هذا فقط بهدف انتشال الإنسان من متاهات الجرى وراء فتات الأخلاق الفاضلة ؛ ولذلك فقد كان يضيف بسرعة أن « كل شيء مباح لاتعني أبدا أنه ليس هناك ما يجب الدفاع عنه) . فكل شيء مباح هي صرخة الإنسان في وجه الأمر الجائر . في حين أنه ليس كل شيء مباحا هو السلوك الذي يعتبر أن الحياة مقدسة ، ومقدس مافيها من الأمور التي لايمكن أن يكون الإنسان بدونها إنسانا مثل : السعادة والحرية والعمل.

الفـــهـــرس

الجزء الاول
الجزء الثاني
الجزء الثالث
كامى .. والغريب